ثلج

رواية

ماكسنس فرمين

ترجمة: رشيد وهتي

Telegram:@mbooks90

دار النهضة العربية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لَا شَيءَ عَدَا الأَبيَضِ لِنَحلُمَ بِهِ.

[أَرثُوز رَامبُو].

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تَنْوِيهَاتٌ مِنَ الْمُتَرْجِمِ

• تَلْج، أَينَمَا وَرَدَ كَاسْمِ عَلَمٍ، في متنِ الرِّواية، كانَ ممنوعًا من الصَّرف.

• يعتمد أسلوب الكاتب إيقاعًا متقطّعًا يخترق كامل الرِّواية: من الفصول القصيرة إلى الجمل القصيرة التي تفكّك أحيانًا أوصال البُنَى النَّحويَّة في خرقٍ مقصودٍ لتركيبة الجملة، وهو ما حاولنا الحفاظ عليه في الصَّنعة العربيَّة أيضًا.

Telegram:@mbooks90

• لا يمكن فصل جماليّات النَّصّ عن تقنيّات وثيمات قصيدة الهايكو اليابانيّ، ومِن ثَمَّ، فإنَّ القصائد اليابانيّة التي تُطَرِّزُ الرِّواية ليست زخرفًا دخيلًا على النَّصّ، وإنَّما تُشَكِّلُ نصًّا في صُلْبِ الحدثِ والكتابةِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.1

كَانَ يُوكُو أُكِيتَا مُغْرَمًا بِشَيْئَيْنِ. اَلْهَايكُو، وَالثَّلْجِ.

اَلْهَايكُو جِنْسٌ أَدَبِيٌّ يَابَانِيٌّ. قَصِيدَةٌ قَصِيرَةٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ فِي سَبْعَةَ عَشَرَ مَقْطَعاً صَوْتِياً. بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

قَصِيدَةٌ هُوَ الثَّلْج. قَصِيدَةٌ تَسَّاقَطُ مِنَ الْغَيْمَاتِ نُدَفاً بَيْضَاءَ، خَفِيفَةً.

آتِيَةٌ مِنْ فَمِ السَّمَاءِ، هَذِهِ الْقَصِيدَةُ، آتِيَةٌ مِنْ يَدِ الْآلِهَةِ.

لَهَا اسْمٌ. اسْمٌ ذُو بَيَاضٍ لَأَلَاءٍ.

ثَلْجٌ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.2

رِيحٌ شَتْوِيَّةٌ؛ رَاهِبٌ عَلَى طَرِيقَةِ الشِّينْتُو، يَشُقُّ طَرِيقَهُ فِي الْغَابَةِ.

[إِسَا].

كَانَ أَبُو يُوكُو كَاهِناً عَلَى طَرِيقَةِ الشِّينْتُو. يُقِيمُ بِجَزِيرَةِ هُوكَّايْدُو، شَمَالَ الْيَابَانِ، حَيْثُ الشِّتَاءُ أَطْوَلُ وَأَقْسَى.

لَقَّنَ ابْنَهُ فَاعِلِيَّةَ الْقُوَى الْكَوْنِيَّةِ، أَهَمِّيَّةَ الْإِيمَانِ وَحُبَّ الطَّبِيعَةِ. لَقَّنَهُ أَيْضاً فَنَّ تَأْلِيفِ قَصَائِدِ الْهَايْكُو.

ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ نِيسَانَ 1884، بَلَغَ يُوكُو السَّابِعَةَ عَشْرَةَ. فِي الْجَنُوبِ، بِكْيُوشُو، بَدَأَتْ أُولَى أَشْجَارِ الْكَرَزِ فِي بِالْإِزْهَارِ. شَمَالَ الْيَابَانِ، كَانَ الْبَحْرُ مَا يَزَالُ جَلِيداً.

كَانَ التَّعْلِيمُ الْقِيَمِيُّ وَالْعَقَائِدِيُّ لِلْفَتَى قَدِ اكْتَمَلَ الْآنَ. وَآنَ لَهُ أَنْ يَخْتَارَ مِهْنَةً. مُنْذُ أَجْيَالٍ، كَانَ أَعْضَاءُ أُسْرَةٍ أَكِيتَا يَتَوَزَّعُونَ بَيْنَ الْكِهَانَةِ وَالْجَيْشِ. وَلَكِنَّ يُوكُو لَمْ يَرْغَبْ فِي أَنْ يَكُونَ رَاهِباً، وَلَا حَتَّى مُحَارِباً.

– أَيْ أَبَتِ، قَالَ صَبِيحَةَ عِيدِ مِيلَادِهِ، أُرِيدُ أَنْ أَصِيرَ شَاعِراً.

قَطَّبَ الرَّاهِبُ حَاجِبَيْهِ تَقْطِيباً كِدْنَا لَا نُبْصِرُهُ، وَلَكِنَّهُ، مَعَ ذَلِكَ، يَكْشِفُ عَنْ خَيْبَةٍ عَمِيقَةٍ. كَانَتِ الشَّمْسُ تَنْعَكِسُ عَلَى الصَّفْحَةِ الْمُتَمَوِّجَةِ لِلْمَاءِ. كَانَ ثَمَّةَ حُوتٌ قَمَرِيٌّ(1) يَعْبُرُ بَيْنَ أَشْجَارِ الْبَتُولَةِ، ثُمَّ يَخْتَفِي تَحْتَ الْجِسْرِ الْخَشَبِ.

– الشِّعْرُ لَيْسَ مِهْنَةً. إِنَّهُ تَزْجِيَةُ وَقْتٍ. الْقَصِيدَةُ مَاءٌ يَنْسَابُ. كَهَذَا النَّهْرِ.

غَاصَ يُوكُو بِنَظْرَتِهِ فِي الْمَاءِ الْهَادِئِ وَالرَّقْرَاقِ. ثُمَّ اسْتَدَارَ نَحْوَ أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ: – وَهَذَا هُوَ مَا أَرْغَبُ فِي فِعْلِهِ. أُرِيدُ أَنْ أَتَعَلَّمَ النَّظَرَ فِي الْوَقْتِ وَهُوَ يَنْسَابُ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.3

صَوتُ جَرَّةِ المَاءِ إِذِ انفَجَرَتْ – تَجَمَّدَ المَاءُ هَذِهِ اللَّيلَةَ –أَيقَظَنِي.

[بَاشُو].

– مَا الشِّعرُ؟ سَأَلَ الرَّاهِبُ. – لُغزٌ لَا تَسَعُهُ العِبَارَةُ، أَجَابَ يُوكُو.

ذَاتَ صَبَاحٍ، نَبَتَ صَوتُ جَرَّةِ المَاءِ الَّتِي تَنفَجِرُ فِي الرَّأسِ قَطرَةَ شِعرٍ، أَيقَظَ الرُّوحَ وَمَنَحَهَا جَمَالَهُ. إِنَّهُ وَقتُ قَولِ مَا لَا يَنقَالُ. إِنَّهُ وَقتُ السَّفَرِ دُونَمَا أُذنَى حَرَكَةٍ. إِنَّهُ الوَقتُ لِيَكُونَ شَاعِراً.

لَا تُجَمِّلْ شَيئاً. لَا تَتَكَلَّم. انظُر وَاكتُب. فِي كَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ. سَبعَةَ عَشَرَ مَقطَعاً صَوتِيّاً]. قَصِيدَةَ هَايكُو.

يَستَيقِظُ ذَاتَ صَبَاحٍ. هُوَ ذَا وَقتُ اعتِزَالِ النَّاسِ لِلاندِهَاشِ أَكثَرَ.

ذَاتَ صَبَاحٍ، أَخَذَ كَامِلَ وَقتِهِ لِيَنظُرَ إِلَى نَفسِهِ كَيفَ يَحيَا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.4

"أَوَّلُ الصَّرَاصِيرِ"، قَالَ؛ ثُمَّ تَبَوَّلَ.

[إسَا]

مَرَّتِ الشُّهُورُ. خِلَالَ صَيْفِ 1884، كَتَبَ يُوكُو اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ قَصِيدَةَ هَايْكُو، بَيْنَهَا تَفَاوُتٌ فِي الْجَمَالِ.

ذَاتَ صَبَاحٍ كَانَتْ فِيهِ الشَّمْسُ مُتَّسِخَةً، حَطَّتْ عَلَى كَتِفِهِ فَرَاشَةٌ وَتَرَكَتْ أَثَراً مُنَجِّماً وَهَشًّا غَسَلَهُ مَطَرُ حُزَيْرَانَ.

أَحْيَاناً، سَاعَةَ الْقَيْلُولَةِ، كَانَ يَذْهَبُ لِسَمَاعِ إِنْشَادِ قَاطِفَاتِ وُرَيْقَاتِ الشَّايِ.

وَفِي يَوْمٍ آخَرَ، وَجَدَ بِبَابِهِ سِخْلِيَّةً مَيِّتَةً.

فِي مَا تَبَقَّى مِنَ الْوَقْتِ، لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ.

عِنْدَمَا عَادَتْ تَبَاشِيرُ فَصْلِ الشِّتَاءِ، طُرِحَ ثَانِيَةً أَمْرُ مُسْتَقْبَلِ يُوكُو.

فِي أَحَدِ أَيَّامٍ كَانُونَ الْأَوَّلِ، أَخَذَهُ أَبُوهُ نَحْوَ أَشْهَقِ جِبَالِ الْيَابَانِ، وَسَطَ قَضَاءِ هُونْشُو، وَعَيَّنَ لَهُ إِحْدَى الْقِمَمِ، حَيْثُ تَبْقَى الثُّلُوجُ إِلَى الْأَبَدِ، أَعْطَاهُ خُرْجاً مَمْلُوءاً بِالطَّعَامِ، وَرَقًّا حَرِيراً وَقَالَ لَهُ: — لَا تَعُدْ إِلَّا حِينَ تُدْرِكُ. مُحَارِباً أَوْ رَاهِباً. الْخِيَارُ لَكَ.

تَسَلَّقَ الْوَلَدُ الْجَبَلَ، دُونَ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْحُسْبَانِ أَيَّةَ مَخَاطِرَ، أَوْ مَصَاعِبَ. فِي الْقِمَّةِ، وَجَدَ مَخْبَأً تَحْتَ صَخْرَةٍ. جَلَسَ قُبَالَةَ بَهَاءِ الْعَالَمِ.

بَقِيَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ عِنْدَ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، يَقْتَاتُ بَهَاءً. عَلَى الرَّقِّ الْحَرِيرِ، لَمْ يَكْتُبْ سِوَى كَلِمَةٍ، كَلِمَةٍ ذَاتِ بَيَاضٍ لَأْلَاءٍ.

عِنْدَمَا عَادَ إِلَى كَنَفِ أَبِيهِ، سَأَلَهُ الْأَخِيرُ: — يُوكُو، هَلْ وَجَدْتَ طَرِيقَكَ؟

جَثَا الْفَتَى عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَأَعْلَنَ: بَلْ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، أَبَتِ. وَجَدْتُ الثَّلْجَ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.5

عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ الْبَرَاحِ حَيثُ يَسَّاقَطُ الثَّلْج؛ إِنْ مُتُّ أَنَا أَيضاً، سَأَتَحَوَّلُ إِلَى تِمْثَالِ بُوذَا، وَلَكِنْ مِنْ ثَلْجٍ.

[شُوزُيِي].

اَلثَّلْج قَصِيدَةٌ. قَصِيدَةٌ ذَاتُ بَيَاضٍ لَأَلَاءٍ.

يُغَطِّي فِي كَانُونَ الثَّانِي نِصْفَ شَمَالِ الْيَابَانِ.

كَانَ الثَّلْج، حَيثُ كَانَ يُقِيمُ يُوكُو، قَصِيدَةَ فَضْلِ الشِّتَاءِ.

فِي خَسَارَةٍ فَادِحَةٍ لِأَبِيهِ، سَلَكَ يُوكُو دَرْبَ الشِّعْرِ فِي أَوَائِلِ كَانُونَ الثَّانِي 1885. قَرَّرَ أَنْ لَا يَكْتُبَ إِلَّا اخْتِفَاءً بِجَمَالِ الثَّلْجِ. كَانَ قَدْ وَجَدَ طَرِيقَهُ. كَانَ يُدْرِكُ أَنَّهُ لَنْ يَسْأَمَ أَبَداً مِنْ تِلْكَ الْحَيَاةِ الْمُلْتَمِعَةِ.

اِعْتَادَ، فِي كُلِّ يَوْمِ ثَلْجٍ، أَنْ يَخْرُجَ مُبَكِّراً جِدًّا مِنَ الْبَيْتِ وَأَنْ يَمْشِيَ فِي اتِّجَاهِ الْجَبَلِ. كَانَ دَوْماً يَتَرَدَّدُ إِلَى الْمَكَانِ نَفْسِهِ لِتَأْلِيفِ قَصَائِدِهِ. كَانَ يَجْلِسُ مُتَرَبِّعاً تَحْتَ شَجَرَةٍ وَيَبْقَى كَذَلِكَ لِسَاعَاتٍ طِوَالٍ، مُنْتَخِباً فِي السِّرِّ الْمَقَاطِعَ السَّبْعَةَ عَشَرَ الْأَجْمَلَ فِي الْعَالَمِ. وَفِي آخِرِ الْأَمْرِ، عِنْدَمَا يُمْسِكُ بِزِمَامِ قَصِيدَتِهِ، يَخُطُّهَا عَلَى وَرَقٍ حَرِيرٍ.

فِي كُلِّ يَوْمِ قَصِيدَةٌ أُخْرَى، إِلْهَامٌ جَدِيدٌ، رَقٌّ جَدِيدٌ. فِي كُلِّ يَوْمِ مَنْظَرٌ مُغَايِرٌ، أَلَقٌ آخَرُ. وَلَكِنْ، دَوْماً، قَصِيدَةُ الْهَايكُو مَعَ الثَّلْجِ، إِلَى أَنْ يَهْبِطَ الظَّلَامُ.

كَانَ يَعُودُ إِلَى الْبَيْتِ، دَوْماً، مِنْ أَجْلِ طُقُوسِ الشَّايِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.6

يَلْعَبْنَ بِالطَّائِرَةِ الْوَرَقِيَّةِ، بِبَرَاءَةٍ، يَفْرِجْنَ بَيْنَ سِيقَانِهِنَّ.

[طَايِجِي].

وَلَكِنَّ يُوكُو لَمْ يَعُدْ ذَاتَ مَسَاءٍ.

كَانَتْ لَيْلَةً مُقْمِرَةً. كَانَتِ الرُّؤْيَةُ فِيهَا وَاضِحَةً كَمَا لَوْ أَنَّنَا فِي وَاضِحَةِ النَّهَارِ. حَلَّ جَيْشٌ عَرَمْرَمٌ مِنَ الْغَيْمَاتِ الْمُقَطَّنَةِ كَالنُّدَفِ لِيَحْجُبَ السَّمَاءَ. آلَافُ الْمُحَارِبِينَ أَطْبَقُوا عَلَى السَّمَاءِ. إِنَّهُ جَيْشُ الثَّلْجِ.

جَالِساً تَحْتَ ضَوْءِ الْقَمَرِ، شَهِدَ يُوكُو زَحْفَهَا بِصَمْتٍ.

لَمْ يَعُدْ إِلَى الْبَيْتِ إِلَّا مَعَ أُوَّلِ خُيُوطِ الْفَجْرِ الْبَيْضَاءِ.

فِي الطَّرِيقِ، وَسْطَ الطَّرَاوَةِ الشَّاحِبَةِ لِلشَّمْسِ، تَقَاطَعَ سَبِيلُهُ مَعَ سَبِيلِ امْرَأَةٍ فَتِيَّةٍ كَانَتْ تَرِدُ الْمَاءَ فِي النَّبْعِ.

وَهِيَ تَنْحَنِي، انْفَتَحَ فُسْتَانُهَا عِنْدَ حُدُودِ إِبْطِهَا وَكَشَفَ عَنْ نَهْدٍ أَبْيَضَ كَالثَّلْجِ.

فِي غُزْفَتِهِ، بَعْدَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ، مَسَّ يُوكُو جَبِينَهُ: كَانَ مُلْتَهِباً كَكَأْسٍ مِنَ السَّاكِي(2) الْحَارِقِ.

نَامَ وَبِيَدِهِ أُيْزُهُ الْمُنْتَصِبُ، كَقُلْفُلَةٍ حَمْرَاءَ.

خَارِجاً، كَانَ كُلُّ شَيْءٍ مُتَجَمِّداً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.7

بَزَدَ نَفَاذ: أُقَبِّلُ زَهرَةَ شَجَرَةِ البَرقُوقِ، فِي الحُلمِ.

[سُوزِيكِي].

لِلثَّلجِ خَمسُ خَاصِّيَّاتٍ أَسَاسِيَّةٍ. أَبيَضُ. يُجَمِّدُ الطَّبِيعَةَ وَيَحفَظُهَا. يَتَغَيَّرُ بِاستِمرَارٍ. يُمَثِّلُ سَطحاً يُزلِقُ. يَستَحِيلُ مَاءً.

عِندَمَا حَادَثَ أَبَاهُ فِي الأَمرِ، لَم يَرَ فِيهِ هَذَا الأَخِيرُ إِلَّا مَظَاهِرَ سَلبِيَّةً كَمَا لَو أَنَّ عِشقَ ابنِهِ الغَرِيبَ لِلثَّلجِ أَحَالَ الفَضلَ الشِّتوِيَّ أَكثَرَ تَزوِيعاً لَهُ فِي نَظَرِهِ.

– أَبيَضُ. هُوَ إِذَن لَا يُرَى، وَلِذَا لَا يَستَحِقُّ الوُجُودَ. يُجَمِّدُ الطَّبِيعَةَ وَيَحفَظُهَا. مُتَعَجرِفٌ، مَن يَظُنُّ نَفسَهُ لِكَي يَزعُمَ أَنَّهُ يَنصِبُ تِمثَالًا لِلعَالَمِ؟ يَتَغَيَّرُ بِاستِمرَارٍ. وَعَلَيهِ، لَا نَستَطِيعُ مَنحَهُ ثِقَتَنَا. يُمَثِّلُ سَطحاً يُزلِقُ. مَن ذَا إِذَن يَستَطِيعُ الاستِمتَاعَ بِالانزِلَاقِ فَوقَ الثَّلجِ؟ يَستَحِيلُ مَاءً. وَذَلِكَ لِإِغرَاقِنَا فِي فَترَةِ الذَّوَبَانِ.

أَمَّا يُوكُو، فَكَانَ يَرَى فِي رَفِيقِهِ خَمسَ خَاصِّيَّاتٍ أُخرَى، كَانَت تُرضِي مَوهِبَتَهُ الفَنِّيَّةَ كَامِلَ الرِّضَا.

– أَبيَضُ. هُوَ إِذَن قَصِيدَةٌ. قَصِيدَةٌ ذَاتُ صَفَاءٍ بَالِغٍ. يُجَمِّدُ الطَّبِيعَةَ وَيَحفَظُهَا. هُوَ إِذَن لَوحَةٌ تَشكِيلِيَّةٌ. أَزهَفُ لَوَحَاتِ الشِّتَاءِ. يَتَغَيَّرُ بِاستِمرَارٍ. هُوَ إِذَن مِن تَحَقُّقَاتِ فَنِّ الخَطِّ. ثَمَّةَ آلَافُ الطُّرُقِ لِكِتَابَةِ كَلِمَةِ ثَلجٍ. يُمَثِّلُ سَطحاً يُزلِقُ. هُوَ إِذَن رَقصَةٌ. فَوقَ الثَّلجِ، لِكُلِّ وَاحِدٍ أَن يَظُنَّ نَفسَهُ بَهلَوَاناً. يَستَحِيلُ مَاءً. هُوَ إِذَن مُوسِيقَى. فِي الرَّبِيعِ يُحَوِّلُ الأَنهَارَ وَالسُّيُولَ إِلَى سِيمفُونِيَّةٍ مِنَ النُّوطَاتِ البَيضَاءِ.

– هُوَ كُلُّ هَذَا بِالنِّسبَةِ إِلَيكَ؟ سَأَلَ الرَّاهِبُ. – بَل وَأَكثَرُ مِن هَذَا.

فِي تِلكَ اللَّيلَةِ، أَدرَكَ أَبُو يُوكُو أَخِيرًا أَنَّ قَصِيدَةَ الهَايكُو لَن تَكفِيَ لِمَلءِ عَينَيِ ابنِهِ بِجَمَالِ الثَّلجِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.8

كَانَ يُوكُو يُجِلُّ فَنَّ الْهَايكُو، الثَّلْجَ وَالرَّقْمَ سَبْعَةَ.

اَلرَّقْمُ سَبْعَةُ رَقْمٌ سِحْرِيٌّ.

لَهُ، فِي الْآنِ ذَاتِهِ، صِلَةٌ بِتَوَازُنِ الْمُرَبَّعِ وَدُوَارِ الْمُثَلَّثِ.

كَانَ عُمْرُ يُوكُو سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً عِنْدَمَا سَلَكَ دَرْبَ الشِّعْرِ.

كَانَ يَكْتُبُ قَصَائِدَ مِنْ سَبْعَةَ عَشَرَ مَقْطَعاً صَوْتِيًّا.

كَانَ يُرَبِّي سَبْعَةَ قِطَطٍ.

وَعَدَ أَبَاهُ أَنْ يَكْتُبَ فَقَطْ سَبْعاً وَسَبْعِينَ قَصِيدَةَ هَايكُو كُلَّ فَصْلِ شِتَاءٍ.

فِي بَقِيَّةِ السَّنَةِ، سَيُرَابِطُ فِي الْبَيْتِ وَيَنْسَى الثَّلْجَ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

9.

ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الرَّبِيعِ، مَعَ تَجَدُّدِ الشَّمْسِ، تَنَاهَتْ أَعْمَالُ يُوكُو إِلَى مَسَامِعِ شَاعِرٍ ذَائِعِ الصِّيتِ فِي بَلَاطِ آلِ مِينِجِي. حَلَّ بِقَرْيَتِهِ، عَثَرَ عَلَى بَيْتِ أَبِي أُكِيتَا وَسَأَلَ عَنْهُ. هُرِعَ الرَّاهِبُ مِنَ الْمَعْبَدِ الْمُجَاوِرِ، وَاسْتَقْبَلَ الْمُوَظَّفَ السَّامِيَ لَدَى الْإِمْبَرَاطُورِ بِجَلَالٍ، وَقَدَّمَ لَهُ فِنْجَانَ شَايٍ ثُمَّ قَالَ: — سَيَعُودُ ابْنِي، اللَّيْلَةَ، مِنَ الْجَبَلِ لِآخِرِ مَرَّةٍ هَذِهِ السَّنَةَ. الْيَوْمَ تَكْتَمِلُ قَصِيدَةُ الْهَايْكُو السَّابِعَةُ وَالسَّبْعُونَ لَدَيْهِ. وَلَكِنْ، إِنْ شِئْتُمْ، أَسْتَطِيعُ أَنْ أُصَحِّبَكُمْ إِلَى مُخْتَرَفِهِ. فَهُنَاكَ يَحْفَظُ جَمِيعَ قَصَائِدِهِ، الْمَكْتُوبَةِ بِأَسْرِهَا فِي رُقُوقٍ حَرِيرٍ. تَنَشَّقَ الشَّاعِرُ أَرِيجَ الشَّايِ بِقَلْبٍ مُفْعَمٍ بِالْغِبْطَةِ وَهُوَ يَتَذَكَّرُ تِلْكَ الْأَوْقَاتِ السَّعِيدَةَ حِينَ، هُوَ بِدَوْرِهِ، أَثَارَ انْتِبَاهَ مُعَلِّمٍ فِي الْقَوَافِي لِيَأْتِيَ بِهِ أَمَامَ الْإِمْبَرَاطُورِ كَيْ يُنْشِدَ لَهُ بَيْتاً تَشَرَّفَ بِأَنْ لَاقَى اسْتِحْسَانَهُ. ثُمَّ عَبَّ جُرْعَةً مُرَّةً وَقَالَ: —أَرِنِي تِلْكَ التُّحَفَ.

دَعَاهُ الرَّاهِبُ لِلْحَاقِ بِهِ، فَوَلَجَا غُرْفَةً كُسِيَتْ حِيطَانُهَا بِالرُّقُوقِ. كَانَ مَجْمُوعُ ذَلِكَ ذَا جَمَالٍ يَقْطَعُ الْأَنْفَاسَ.

— هُنَا، أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ. كُلُّ قَصَائِدِ الْهَايْكُو الَّتِي كَتَبَهَا وَلَدِي طَوْعُ حُكْمِكَ عَلَيْهَا.

تَقَدَّمَ الشَّاعِرُ بِبُطْءٍ جَلِيلٍ وَقَرَأَ كُلًّا مِنْ قَصَائِدِ الثَّلْجِ السَّبْعَةِ وَالسَّبْعِينَ الَّتِي أَلَّفَهَا يُوكُو أُكِيتَا خِلَالَ هَذَا الْفَضْلِ.

حِينَ فَرَغَ، رَأَى الرَّاهِبُ أَنَّ بَعْضَ الدَّمْعِ تَقَطَّرَ بَيْنَ جُفُونِهِ.

— هَذَا رَائِعٌ. لَمْ أَقْرَأْ قَطُّ مَثِيلًا لَهُ. أَظُنُّ أَنَّ الْإِمْبَرَاطُورَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْعَلَ مِنِ ابْنِكَ الشَّاعِرَ الرَّسْمِيَّ لِلْبَلَاطِ، عِنْدَمَا أَرْحَلُ عَنْ هَذَا الْعَالَمِ.

اِرْتَمَى أَبُو يُوكُو، مِنْ فَرْطِ الْفَرْحَةِ، عِنْدَ قَدَمَيِ الْمُوَظَّفِ السَّامِي.

— وَلَكِنْ، أَضَافَ هَذَا الْأَخِيرُ، عَلَيَّ أَنْ أَعْتَرِفَ بِأَمْرَيْنِ يُكَدِّرَانِ صَفْوِي.

رَفَعَ الرَّاهِبُ رَأْسَهُ وَسَرَتْ بَيْنَ ضُلُوعِهِ رِعْشَةٌ.

— مَاذَا فِي الْأَمْرِ؟ أَلَيْسَتْ قَصَائِدُ الْهَايْكُو هَذِهِ الْأَجْمَلَ مُنْذُ الْعَظِيمِ بَاشُو؟ — أَكِيدُ أَنَّ الْعَمَلَ مُتَفَرِّدٌ. الْكَلِمَاتُ تَنْهَلُ مِنْ مَنْبَعِ الْجَمَالِ. لِلنُّصُوصِ مُوسِيقَى مُتَأَصِّلَةٌ فِيهَا، وَلَكِنَّهَا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تَفْتَقِدُ الْأَلْوَانَ. كِتَابَةُ ابْنِكَ بَيْضَاءُ بِشِدَّةٍ، لَا تَكَادُ تُرَى. إِنْ قُدِّرَ لِابْنِكَ أَنْ يُقَدِّمَ أَعْمَالَهُ لِلْإِمْبَرَاطُورِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يُلَوِّنُ قَصَائِدَهُ. — لَا تَنْسَ، سَيِّدِي، أَنَّهُ مَا يَزَالُ فَتِيًّا. بِالْكَادِ يَبْلُغُ [لَمَّا يَبْلُغْ بَعْدُ] السَّابِعَ عَشْرَةَ [السَّابِعَةَ عَشْرَةَ]. سَيَتَعَلَّمُ. وَلَكِنْ مَا الشَّيْءُ الثَّانِي الَّذِي يُكَدِّرُ صَفْوَكَ؟

طَلَبَ الشَّاعِرُ فِنْجَانَ شَايٍ ثَانِيًا، جَلَسَ تَحْتَ تَعْرِيشَةِ الْكَرْمَةِ أَمَامَ الْبَيْتِ وَرَنَا لِلْجَبَلِ يَتَسَامَقُ فِي طَرَاوَةٍ رَبِيعِيَّةٍ. بَعْدَ ذٰلِكَ، شَرِبَ جُرْعَةً مُرَّةً وَقَالَ: — لِمَ الثَّلْجُ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.10

حِينَ عَادَ يُوكُو مِنَ الْجَبَلِ وَعَلِمَ بِأَنَّ غَرِيباً قَرَأَ قَصَائِدَهُ وَ – أَدْهَى مِنْ ذَلِكَ – أَحَبَّهَا، انْتَابَتْهُ غَضْبَةٌ هَوْجَاءُ.

– إِنَّهَا مُجَرَّدُ خُطَاطَاتٍ. لَمْ أَتَمَكَّنْ بَعْدُ مِنْ لُغْبَتِي الْفَنِّيَّةِ. – وَلَكِنَّك، مُنْذُ الْآنَ، مَظْلُومٌ فِي الْبَلَاطِ! وَهُوَ شَرَفٌ لَك، شَرَفٌ عَظِيمٌ، أَجَابَهُ أَبُوهُ. – لَا، قَالَ يُوكُو، تِلْك دَنَاءَةٌ.

حِينَ أَعَادَ الرَّاهِبُ عَلَى مَسَامِعِهِ كَلِمَاتِ الشَّاعِرِ كَمَا هِيَ، انْتَهَبَتْ مَشَاعِرُ يُوكُو.

– وَمَاذَا يَعْرِفُ عَنِ التَّشْكِيلِ وَالْأَلْوَانِ؟ ثَمَّةَ آلَافُ الطُّرُقِ فِي الْكِتَابَةِ، ثَمَّةَ آلَافُ الطُّرُقِ فِي صَنْعِ قَصِيدَةٍ، وَلَكِنَّهَا جَمِيعاً تُشْبِهُ لَدَيَّ الثَّلْجَ. سَأَذْهَبُ لِرُؤْيَةِ الْإِمْبَرَاطُورِ عِنْدَمَا أَكُونُ قَدْ فَرَغْتُ مِنْ كِتَابَةِ عَشَرَةِ آلَافِ مَقْطَعٍ صَوْتِيٍّ، عَشَرَةِ آلَافِ مَقْطَعٍ صَوْتِيٍّ ذَاتِ بَيَاضٍ مُذْهِشٍ. بِالتَّمَامِ وَالْكَمَالِ، لَا تَنْقُصُ مَقْطَعًا وَاحِدًا]. –وَلَكِنَّ عَشَرَةَ آلَافِ مَقْطَعٍ صَوْتِيٍّ، هَذَا يَعْنِي مَا يُقَارِبُ تِسْعِينَ وَخَمْسَمِئَةَ قَصِيدَةٍ هَايْكُو! بِوَاقِعِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ قَصِيدَةً فِي السَّنَةِ، هَذَا يُمَثِّلُ رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ سَبْعَ سَنَوَاتٍ مِنَ الْعَمَلِ. – إِذَنْ، سَأَذْهَبُ إِلَى الْبَلَاطِ بَعْدَ سَبْعِ سَنَوَاتٍ.

مِنْ ثَمَّ، لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ، بِتَفَاهُمٍ ضِمْنِيٍّ بَيْنَ الْأَبِ وَالْابْنِ، مِنْ دَاعٍ لِقُدُومِ الشَّاعِرِ الْإِمْبَرَاطُورِيِّ.

فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ ذَاكَ، بَقِيَ يُوكُو عِنْدَ وَغْدِهِ وَلَمْ يَكْتُبْ وَلَوْ بَيْتاً شِعْرِياً وَاحِداً.

اكْتَفَى، مُتَلَذِّذاً، بِتَنَشُّقِ أَرِيجِ بَتَلَاتِ زُهُورِ الْكَرَزِ فِي الْبُسْتَانِ الْأَخْضَرِ.

فِي الصَّيْفِ، تَنَشَّقَ عَبِيرَ الْعَسَلِ الْقَادِمَ مِنَ الْغَابَةِ تَحْتَ نَظَرِ الْقَمَرِ عِنْدَ قُنَنِ الْجِبَالِ.

فِي أَوَائِلِ أَيَّامِ الْعَاصِفَةِ، عَثَرَ عَلَى قَوْقَعَةٍ وَسْطَ الزَّبَدِ قُرْبَ النَّهْرِ.

كَانَتْ سَنَةً سَاكِنَةً وَمُعَطَّرَةً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.11

إهَابُ النِّساءِ، إهَابٌ يُخَيِّلُنَهُ، ما أسْخَنَهُ!

[سوتيجُو]

كَانَ ثَانِي فُصُولِ شِتَاءِ الشُّعرِ ذَا بَيَاضٍ لَألَاءِ. تَسَاقَطَ الثَّلْج أكْثَرَ مِمَّا يَلْزَمُ.

ذاتَ لَيلَةٍ مِنْ لَيَالِي كَانُونَ الْأوَّلِ، أزَالَتِ امْرَأةُ النَّبعِ الْفَتِيَّةُ بُكُورِيَّتَهُ. كَانَ لِإهَابِهَا طَعْمُ الْخَوْخِ. أخَذَ حَلَمَةَ نَهْدِهَا الْأبْيَضِ فِي فَمِهِ وَمَصَّهَا كَلَيْمُونَةٍ قَمَرِيَّةٍ. وَلَمْ يُطْلِقْهَا إلَّا مَعَ أوَّلِ خُيُوطِ الْفَجْرِ الْبَيْضَاءِ.

خِلَالَ فَصْلِ الشِّتَاءِ، كَتَبَ يُوكُو سَبْعاً وَسَبْعِينَ قَصِيدَةَ هَايكُو بَيْنَهَا تَفَاوُتٌ فِي الْجَمَالِ وَالْبَيَاضِ.

وَكَانَتِ الثَّلَاثُ الْأخِيرَةُ هِيَ: ثَلْجٌ شَفِيفٌ، عَبَّارَةُ صَفْتٍ وَجَمَالٍ. مُوسِيقَى الثَّلْجِ، جُذُجُدُ الشِّتَاءِ تَحْتَ خُطْوَاتِي. اِمْرَأةٌ مُقْعِيَةٌ، تَبُولُ وَتُذِيبُ اَلثَّلْجَ.

كَانَ هُوَ هَذَا، فَنَّ الْهَايكُو.

شَيْءٌ شَفِيفٌ. عَفْوِيٌّ. حَمِيمٌ. وَذُو جَمَالٍ مُزْهِفٍ أوْ نَثْرِيٍّ.

هَذَا لَا يُوحِي بِشَيْءٍ ذِي قِيمَةٍ كَبِيرَةٍ بِالنِّسْبَةِ إلَى عَامَّةِ النَّاسِ. وَلَكِنْ، بِالنِّسْبَةِ إلَى رُوحٍ شَاعِرِيَّةٍ، كَمَا لَوْ أنَّهُ عَبَّارَةٌ نَحْوَ الْأَلَقِ الْإلَهِيِّ. عَبَّارَةٌ نَحْوَ أَلَقِ الْمَلَائِكَةِ الْأبْيَضِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.12

مَعَ أَوَائِلِ الرَّبِيعِ، عَادَتِ الشَّمْسُ. وَعَادَ مَعَهَا شَاعِرُ بَلَاطِ آلِ مِينجِي.

وَلَمْ يَكُنْ، هٰذِهِ الْمَرَّةَ، وَحْدَهُ.

كَانَتْ تَصْحَبُهُ فِي السَّفْرَةِ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ بَاهِرٍ، امْرَأَةٌ مُغْرَمَةٌ بِالشِّعْرِ. كَانَ إِهَابُهَا صَافِياً وَشَعْرُهَا أَسْوَدَ كَاللَّيْلِ. كَانَتْ مَخْمِيَّةَ الْمُعَلِّمِ.

اِسْتَقْبَلَهُمَا أَبُو يُوكُو مَعاً، بِحَفَاوَةٍ بَالِغَةٍ، تَحْتَ تَغْرِيشَةِ الْكَرَمَةِ الْمُزْهِرَةِ. قَدَّمَ لَهُمَا شَايَاً نَادِراً وَلَذِيذاً.

لَمَّا ارْتَشَفَ الْمُعَلِّمُ وَالْمَرْأَةُ الْفَتِيَّةُ جُرْعَةً مُرَّةً، قَالَ لَهُمَا: — ابْنِي لَا يَجِدُ نَفْسَهُ جَدِيراً بِمَا تُشَرِّفُونَهُ بِهِ. يَظُنُّ أَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى سَبْعِ سَنَوَاتٍ لِصَقْلِ فَنِّهِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي حَضْرَةِ الْإِمْبَرَاطُورِ. وَلَأَنَّه أَنْهَى ثَانِيَ فُصُولِ شِتَاءِ الشِّعْرِ فَحَسْبُ، تَتَبَقَّى خَمْسُ سَنَوَاتٍ يَنْبَغِي انْتِظَارُ انْقِضَائِهَا.

Telegram:@mbooks90

نَظَرَ الْعَجُوزُ طَوِيلًا إِلَى ضِفَّتَيِ النَّهْرِ الْمُفَضَّضِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ.

— خَمْسُ سَنَوَاتٍ، هَذَا أَمَدٌ طَوِيلٌ. لَا أَدْرِي إِنْ كَانَ الْإِمْبَرَاطُورُ سَيَنْتَظِرُ حَتَّى تِلْكَ السَّاعَةِ. مَتَى يَنْبَغِي لِيُوكُو أَنْ يَعُودَ؟ — مَعَ هُبُوطِ الظَّلَامِ. — سَنَنْتَظِرُهُ.

حِينَ عَادَ يُوكُو مِنَ الْجَبَلِ، وَجَدَ الزَّائِرَيْنِ فِي مُخْتَرَفِهِ. وَفِي الْحَالِ أَسَرَهُ جَمَالُ الْمَرْأَةِ الْفَتِيَّةِ السَّاحِرُ. أَمَّا وَجْهُ الْمُعَلِّمِ فَلَمْ يُوْحِ لَهُ إِلَّا بِاللَّامُبَالَاةِ.

— يُوكُو، قَالَ شَاعِرُ الْبَلَاطِ، لَدَيَّ سُؤَالَانِ لَكَ. — كُلِّي لَكَ آذَانٌ صَاغِيَةٌ، أَيْ مُعَلِّمُ. — لِمَ سَبْعُ سَنَوَاتٍ؟ — لِأَنَّهُ رَقْمٌ سِحْرِيٌّ.

اِلْتَقَطَ يُوكُو ابْتِسَامَةً خَفِيفَةً عَلَى شَفَتَيِ الْمَرْأَةِ الْفَتِيَّةِ. كَانَتْ شَفَتَاهَا تُحِيلَانِ إِلَى طَرَاوَةٍ فَاكِهَةٍ. وَقَدْ تَمَالَكَ نَفْسَهُ كَيْ لَا يَقْضِمَهَا بِكَامِلِ أَسْنَانِهِ.

— وَلِمَ الثَّلْجُ إِذَنْ؟ وَاصَلَ الْمُعَلِّمُ. — لِأَنَّهُ، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، قَصِيدَةٌ، خِطَاطَةٌ، تَشْكِيلٌ، رَقْصٌ وَمُوسِيقَى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دَنَا الرَّجُلُ مِنْ يُوكُو وَتَنَهَّدَ تَنَهِيدَةً سَاخِنَةً: — هُوَ كُلُّ هَذَا إِذَنْ؟ —بَلْ وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا.
— أَنْتَ شَاعِرٌ. وَلَكِنْ مَاذَا تَعْرِفُ عَنِ الْفُنُونِ الْأُخْرَى؟ هَلْ تَعْرِفُ الرَّقْصَ، الرَّسْمَ، الْخَطَّ، تَأْلِيفَ الْمُوسِيقَى؟

لَمْ يَجِدْ يُوكُو جَوَاباً. وَأَحَسَّ بِاخْمِرَارٍ يَجْتَاحُ مُحَيَّاهُ.

— أَنَا شَاعِرٌ. أَكْتُبُ أَبْيَاتاً. لَا حَاجَةَ لِي بِمَعْرِفَةِ شَيْءٍ آخَرَ كَيْ يَبْلُغَ فَنِّي مَقْصِدَهُ. — غَلَطٌ. الشِّعْرُ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، تَشْكِيلُ الرُّوحِ، تَضْمِيمُ رَقَصَاتِ الرُّوحِ، مُوسِيقَى الرُّوحِ وَخِطَاطَتُهَا. الْقَصِيدَةُ، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، لَوْحَةُ الْجَمَالِ، رَقْصَةُ الْجَمَالِ، مَقْطُوعَةُ الْجَمَالِ وَكِتَابَتُهُ. إِنْ رَغِبْتَ فِي أَنْ تَصِيرَ مُعَلِّماً، فَعَلَيْكَ تَمَلُّكُ مَوْهِبَةِ الْفَنَّانِ الْمُطْلَقِ. أَعْمَالُكَ جَمِيلَةٌ بِرَوْعَةٍ، رَاقِصَةٌ، مُمَوْسَقَةٌ، وَلَكِنَّهَا بَيْضَاءُ كَالثَّلْجِ. يَنْقُصُهَا التَّلْوِينُ، التَّشْكِيلُ. لَسْتَ تَشْكِيلِيًّا، يُوكُو. وَهَذَا مَا يَنْقُصُكَ. هَذَا فَحَسْبُ. وَلِهَذَا، إِنْ لَمْ تُصْغِ إِلَيَّ، فَسَيَبْقَى شِعْرُكَ مَغْمُوراً أَمَامَ نَاظِرَيِ النَّاسِ.

كَانَ الْعَجُوزُ يُضْجِرُهُ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ الْفَتِيَّةَ بِجَانِبِهِ كَانَتْ جَمِيلَةً، وَلَمْ يَكُنْ يُوكُو لِيُخَيِّبَهَا.

— كُلِّي آذَانٌ صَاغِيَةٌ، أَيْ مُعَلِّمُ. — ثَمَّةَ، فِي جَنُوبِ الْيَابَانِ، رَجُلٌ يَمْتَلِكُ مَوْهِبَةَ الْفَنِّ الْمُطْلَقِ. يَكْتُبُ قَصَائِدَ رَائِعَةً، مَقْطُوعَاتٍ مُوسِيقِيَّةً، وَلَكِنَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ فَنَّانٌ تَشْكِيلِيٌّ. هَذَا الرَّجُلُ الْمُذْهِلُ وَمُنْقَطِعُ النَّظِيرِ يُدْعَى سُوزِيكِي. لَقَدْ كَانَ مُعَلِّمِي. قُمْ بِزِيَارَتِهِ بِتَوْصِيَةٍ مِنِّي. أُرْجُوكَ. سَيُعَلِّمُكَ الْقَلِيلَ الَّذِي يَنْقُصُكَ.

لَمْ تَقُلْ مَخْمِيَّةُ شَاعِرِ بَلَاطِ آلِ مِينْجِي وَلَوْ كَلِمَةً وَاحِدَةً فِي أَثْنَاءِ الْمُحَاوَرَةِ. اكْتَفَتْ بِالتَّخْدِيقِ فِي يُوكُو بِشِدَّةٍ، مُبْتَسِمَةً وَمُرْتَشِفَةً جُرْعَاتٍ طَوِيلَةً مِنَ الشَّايِ السَّاخِنِ.

— لَا تَتَأَخَّرْ، قَالَ الْعَجُوزُ، لِأَنَّ سُوزِيكِي طَاعِنٌ فِي السِّنِّ وَيُمْكِنُ أَنْ يَمُوتَ عَمَّا قَرِيبٍ.

اِنْحَنَى لَهُ يُوكُو وَخَتَمَ: — غَداً، أَيْ مُعَلِّمُ، سَأَذْهَبُ لِزِيَارَةِ سُوزِيكِي.

ثُمَّ اسْتَدَارَ وَحَيَّا بِازْتِبَاكِ الْمَرْأَةَ الْفَتِيَّةَ بِجَانِبِهِ. ضَحِكَتْ ضَحْكَةً خَفِيفَةً وَسَاخِرَةً، ضَحْكَةً خَفِيفَةً كَزَغْرَدَةٍ تَنْطَلِقُ فِي الْهَوَاءِ.

فِي الْحَالِ شَعَرَ نَحْوَهَا بِحِقْدٍ رَهِيبٍ وَحُبٍّ عَارِمٍ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.13

فِي الْمَسَاءِ نَفْسِهِ، تَلَذَّذَ بِجَسَدِ فَتَاةِ الثَّلْجِ الصَّغِيرَةِ. ذَهَبَ بِهَا إِلَى الثَّلْجِ، تَحْتَ الْأَغْصَانِ الْبِلُّورِيَّةِ لِشَجَرَةِ كَرَزٍ. عَاوَدَا وَطَرَهُمَا سَبْعَ مَرَّاتٍ. بِعُنْفٍ. إِلَى أَنْ شَابَهَ أَيْزُهُ خُرْشُوفاً قَدِيماً وَفَرْجُهَا ثُلْمًا بَنَفْسَجِيًّا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.14

فِي الْغَدِ، مَعَ الْفَجْرِ، غَادَرَ يُوكُو قَرْيَتَهُ. وَدَّعَ أَبَاهُ وَأُسْرَتَهُ، ثُمَّ شَقَّ طَرِيقَهُ نَحْوَ الْجَنُوبِ.

كَانَتْ رِحْلَةً نَحْوَ شَمْسِ قَلْبِهِ. كَانَ صَفَاءُ الْعَالَمِ وَأَلَقُهُ مِلْءَ نَاظِرَيْهِ. وَهُوَ يَمْشِي بَطِيئاً فِي طَرِيقِهِ، أَحَسَّ يُوكُو بِنَشْوَةٍ صَافِيَةٍ وَلَأْلَاءَةٍ. كَانَ حُرًّا وَسَعِيداً. كَانَ مَتَاعُهُ يَقْتَصِرُ عَلَى ذَهَبِ إِيمَانِهِ بِالْحُبِّ وَالشِّعْرِ.

وَلَكِنْ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقَعَ قَدْ وَقَعَ. لِكَثْرَةِ مَا أَحَبَّ الثَّلْجَ بِوَلَهٍ، فَقَدَ أَيَّ خَوْفٍ مِنْهُ. وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ إِلَّا هَذَا الثَّلْجُ الَّذِي كَادَ يَبْتَلِعُهُ بِحُبِّهِ.

بَيْنَمَا كَانَ يَعْبُرُ أَشْهَقَ جِبَالِ الْيَابَانِ، تَاهَ يُوكُو، جَسَداً وَزَاداً، وَسْطَ عَاصِفَةٍ ثَلْجِيَّةٍ هَوْجَاءَ. كَانَ ضَحِيَّةَ غَضَبِ الْعَنَاصِرِ وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُ الْخَلَاصُ إِلَّا بِفَضْلِ مَخْبَأِ حَسَنِ الطَّالِعِ.

اِلْتَجَأَ يُوكُو تَحْتَ صَخْرَةٍ، مُخْتَبِئاً مِنَ الرِّيحِ، وَهُنَاكَ — مُرْتَجِفاً مِنَ الْبَرْدِ، خَائِرَ الْقِوَى، وَحِيداً وَسْطَ مَتَاهَاتِ الْعَتَمَةِ، وَحِيداً فِي عُمْقِ الثَّلْجِ، وَحِيداً فِي دُوَارِ الْعُزْلَةِ، وَحِيداً فِي الصَّمْتِ، بَيْنَمَا تَوَفَّرَتْ كُلُّ الظُّرُوفِ لِيَمُوتَ مِئَةَ مِرَّةٍ مِنَ الْبَرْدِ، مِنَ الْجُوعِ، مِنَ التَّعَبِ، مِنَ الْغَمِّ، مِنَ الضَّجَرِ — نَجَا.

نَجَا لِأَنَّ مَا رَآهُ، تِلْكَ اللَّيْلَةَ، ذَاكَ الشَّيْءَ، ذَاكَ الشَّيْءَ الرَّائِعَ الْقَادِمَ بِدَوْرِهِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ لِلْوَاقِعِ، ذَاكَ الشَّيْءَ السَّامِيَ وَالْجَمِيلَ كَانَ أَجْمَلَ وَأَسْمَى صُورَةٍ قُيِّضَ لَهُ أَنْ يَرَاهَا طَوَالَ حَيَاتِهِ. وَهَذِهِ الصُّورَةُ، لَمْ يَكُنْ بِوُسْعِهِ أَنْ يَنْسَاهَا أَبَداً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.15

هَذَا الشَّيءُ الفَائِقُ الجَمَالِ، إنَّهُ هِيَ. حِينَ اضْطَجَعَ تَحتَ تِلْكَ الصَّخْرَةِ، كَانَتْ هُنَاكَ، أَمَامَ نَاظِرَيهِ. كَانَتْ تَبْدُو هَشَّةً كَحُلْمٍ. كَانَتِ امرَأَةً فَتِيَّةً، عَارِيَةً وَشَقْرَاءَ، أُورْبِيَّةَ الأُرُومَةِ. كَانَتْ مَيِّتَةً. نَائِمَةً تَحتَ مِثْرٍ مِنَ الثَّلْجِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.16

لَمْ تَكُنْ نَائِمَةً حَقًّا. كَانَتْ مَيِّتَةً. وَلَكِنَّ تَابُوتَهَا كَانَ شَفِيفاً كَالْبِلَّوْرِ. فِي الْحَالِ، أُغْرِمَ يُوكُو بِتِلْكَ الْجَمِيلَةِ الْمَجْهُولَةِ.

لَمْ يَعِ وَلَوْ لِلَحْظَةٍ أَنَّهُ كَانَ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ جُثَّةٍ. لَمْ تَكُنْ مَيِّتَةً عَادِيَّةً. لَقَدْ كَانَتْ حُضُوراً رَائِعاً.

قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، كَانَتْ عَارِيَةً. مَاذَا كَانَتْ تَفْعَلُ عَارِيَةً تَحْتَ مِتْرٍ مِنَ الثَّلْجِ؟ هَذَا هُوَ السُّؤَالُ الَّذِي تَبَادَرَ إِلَى ذِهْنِهِ حَالًا. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ لَهُ جَوَاباً.

مِنْ أَيْنَ أَتَتْ؟ مُنْذُ مَتَى كَانَتْ أَسِيرَةَ هَذَا الشَّرَكِ الشَّفِيفِ وَالْأَبَدِيِّ؟ وَهَلْ كَانَتْ، حَقًّا، حَقِيقِيَّةً؟

كَانَتِ الْمَرْأَةُ الْفَتِيَّةُ أَسِيرَةُ الْجَلِيدِ تَبْدُو هَشَّةً وَنَاعِمَةً كَحُلْمٍ. أَمَّا بَرِيقُ شَعْرِهَا الذَّهَبِيِّ فَكَانَ يَأْتَلِقُ كَمِشْعَلٍ. أَمَّا جُفُونُهَا، وَإِنْ كَانَتْ مَخْجُوبَةً، فَقَدْ كَانَتْ تَشِفُّ عَنْ زُرْقَةِ عَيْنَيْهَا الثَّلْجِيَّةِ، كَمَا لَوْ أَنَّ التَّآكُلَ بِالْجَلِيدِ جَعَلَ الْإِهَابَ الَّذِي يَحْفَظُ نَظْرَتَهَا شَفِيفاً. كَانَ وَجْهُهَا أَبْيَضَ كَالثَّلْجِ.

نَظَرَ إِلَيْهَا يُوكُو، دُونَ أَنْ يَقُولَ شَيْئاً، مَأْخُوذًا بِجَمَالِهَا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.17

ظَنَّ يُوكُو نَفسَهُ فِي حُلمٍ.

بَدَا لَهُ أَنَّ صُورَةَ الْمَرأَةِ الْفَتِيَةِ كَانَت طَيِّعَةً بِرَهَافَةٍ لِتَبدُّلَاتِ الشَّكلِ الَّتِي تُحدِثُهَا هَندَسَةُ أَحلَامِهِ. وَلَكِنَّهُ لَم يَكُن، فِي الْحَقِيقَةِ، فَرِيسَةً لِلْهَلْوَسَةِ. لَقَد كَانَت هُنَاك، تَحتَ الْجَلِيدِ، عَلَى مَسَافَةِ مِترٍ مِنهُ، وَكَانَ يَعشَقُهَا.

بَقِيَ يُوكُو، طَوَالَ اللَّيلِ، يُمتِعُ نَظَرَهُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ. وَلَم يَكُلَّ مِنهَا وَلَو لِلَحظَةٍ. كَانَ هُنَاك، مُستَمِرّاً رَغمَ الْبَردِ، يَتَأَمَّلُ مَا لَم يَأمَل قَطُّ رُؤيَتَهُ، حَتَّى فِي الْحُلمِ.

بِالنِّسبَةِ إِلَيهِ، تَوَقَّفَ الزَّمَنُ فِي تِلْكَ اللَّيلَةِ.

مَن كَانَت تِلْك؟ وَلِمَ كَانَت مَوجُودَةً فِي ذَاكَ الْمَكَانِ؟

لَم يَكُن يُدرِكُ مِنَ الْأَمرِ شَيئاً.

وَلَكِنَّهُ كَانَ يُدرِكُ شَيئاً، شَيئاً وَاحِداً، حَزِيناً وَجَمِيلًا: أَنَّهُ سَيَشِيخُ، بِالتَّأكِيدِ، وَسَيَنتَهِي بِالْمَوتِ يَوماً، وَلَكِنَّ حُبَّهُ لِهَذِهِ الْمَرأَةِ لَن يَمُوتَ أَبَداً، كَمَا أَنَّ هَذَا الْوَجهَ الرَّاقِدَ تَحتَ الْجَلِيدِ لَن يَتَغَضَّنَ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.18

فِي الْفَجْرِ، غَرَسَ يُوكُو صَلِيباً بِالضَّبْطِ فِي الْمَكَانِ حَيثُ قَامَ بِكَشْفِهِ الْمأْثِمِ. ثُمَّ وَاصَلَ طَرِيقَهُ.

لَنْ يَنْسَى — مَا بَقِيَ حَيًّا — مَا عَاشَهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ. لَمْ تُفَارِقْ صُورَةُ الْمَرْأَةِ الْفَتِيَّةِ بَالَهُ طَوَالَ رِحْلَتِهِ.

فِي الْمَسَاءِ نَفْسِهِ، بَلَغَ قَرْيَةً جَبَلِيَّةً.

مَشَى نَحْوَ السَّاحَةِ وَانْهَارَ مِنَ التَّعَبِ عِنْدَ النَّبْعِ الْمُتَجَمِّدِ. هَرَعَ إِلَيْهِ مُزَارِعٌ عَجُوزٌ بِقَدَحٍ مِنَ السَّاكِي.

اِلْتَفَتَ نَحْوَهُ الْفَتَى، ارْتَشَفَ جُرْعَةً بَيْضَاءَ، اسْتَرْجَعَ أَنْفَاسَهُ وَسَأَلَ: — مَنْ تَكُونُ، تِلْكَ الْمَرْأَةُ؟

وَانْهَارَ بَيْنَ ذِرَاعَيِ الْعَجُوزِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.19

إحتَاجَ سَبعَةَ أيّامٍ مِنَ الرّاحَةِ لِيَستَعِيدَ عافِيَتَهُ وَيُوَاصِلَ رِحلَتَهُ.

خِلَالَ تِلْكَ الأيّامِ السّبعَةِ، نَامَ يُوكُو وَحلَمَ بِامرَأةِ الثّلْجِ. وَذَاتَ صَبَاحٍ، اسْتَيقَظَ، شَكَرَ الْمُزَارِعَ وَوَاصَلَ طَرِيقَهُ. وَعَنِ الْمَرأةِ الْفَتِيّةِ الّتِي نَظَرَ إلَيهَا مِنْ خِلَالِ الْجَلِيدِ، لَمْ يَقُلْ أبَداً شَيئاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.20

عَبَرَ الْيَابَانَ مِنْ أَقْصَاهُ إِلَى أَقْصَاهُ، وَوَصَلَ ذَاتَ صَبَاحٍ إِلَى أَمَامِ بَابِ سُوزِيكِي. وَجَدَ عِنْدَهُ خَادِماً يُدْعَى هُوزُوشِي. كَانَ رَجُلًا طَاعِناً فِي السِّنِّ، ذَا ابْتِسَامَةٍ لَطِيفَةٍ، وَوِجْنَتَيْنِ مُتَغَضِّنَتَيْنِ وَشَعْرٍ اشْتَعَلَ شَيْباً. قَالَ لَهُ يُوكُو: — أَتَيْتُ بِتَوْصِيَةٍ مِنْ شَاعِرِ بَلَاطِ آلِ مَيْجِي لِتَعَلُّمِ فَنِّ الْأَلْوَانِ عَلَى يَدِ الْمُعَلِّمِ سُوزِيكِي. هَلْ بِإِمْكَانِي الدُّخُولُ؟

تَرَاجَعَ الْخَادِمُ وَوَلَجَ يُوكُو فَضَاءً دَاخِلِيًّا مُرِيحاً جِدًّا. قَزَفَصَ فَوْقَ حَصِيرٍ مَنْسُوجٍ مِنَ الْخَيْزُرَانِ، قُبَالَةَ حَدِيقَةٍ مَلِيئَةٍ بِطَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ النَّبَاتَاتِ. قُدِّمَ لَهُ قَدَحٌ مِنَ الشَّايِ السَّاخِنِ. خَارِجاً، كَانَ ثَمَّةَ طَيْرٌ يُغَرِّدُ بِلَحْنٍ عَنِيدٍ قُرْبَ نَهْرٍ مُفَضَّضٍ: — أَنَا قَادِمٌ مِنْ بَعِيدٍ، وَاصَلَ يُوكُو. أَكْتُبُ شِعْراً. وَبِشَكْلٍ أَدَقَّ، أَنَا شَاعِرُ الثَّلْجِ. أَتَيْتُ لِمُتَابَعَةِ دُرُوسِ الْمُعَلِّمِ سُوزِيكِي.

طَأْطَأَ هُوزُوشِي رَأْسَهُ عَلَامَةً عَلَى الرِّضَا.

— كَمْ مِنَ الْوَقْتِ سَتَبْقَى بِصُحْبَةِ الْمُعَلِّمِ؟ — مَا يَلْزَمُ مِنَ الْوَقْتِ. أُرِيدُ أَنْ أُصِيرَ شَاعِراً مَاهِراً. — فَهِمْتُ. وَلَكِنَّ سَيِّدِي طَاعِنٌ فِي السِّنِّ وَمُتْعَبٌ جِداً. لَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا الْقَلِيلُ لِيَعِيشَهُ. لِذَلِكَ، لَا يُعْطِي دُرُوسَهُ إِلَّا لِجَمْعٍ مَحْدُودٍ مِنَ الطَّلَبَةِ النَّابِغِينَ. حِصَّتَانِ فِي الْيَوْمِ. صَبَاحاً مَعَ الْفَجْرِ وَمَسَاءً مَعَ الشَّفَقِ. بِسَبَبِ الضَّوْءِ، طَبْعاً. — سَأُرَاعِي أَحْوَالَهُ الصِّحِّيَّةَ. ثُمَّ إِنِّي، إِنْ لَمْ أُجِدْنِي جَدِيراً بِدُرُوسِهِ، سَأَرْحَلُ فِي الْحَالِ. — سَيَحْكُمُ الْمُعَلِّمُ سُوزِيكِي عَلَى مَدَى أَهْلِيَّتِكَ. وَهَا هُوَ. هُوَ ذَا وَقْتُ تَنَزُّهِهِ بَيْنَ الزُّهُورِ. فَمِنْ هُنَاكَ يَغْتَرِفُ فَيْضَ أَلْوَانِهِ.

كَانَ هُوزُوشِي يُشِيرُ إِلَى خَيَالٍ يَتَقَدَّمُ بَطِيئاً فِي الْحَدِيقَةِ. الْتَفَتَ يُوكُو نَحْوَ الْمُعَلِّمِ لِيَكْتَشِفَ شَيْخاً ذَا لِحْيَةٍ طَوِيلَةٍ بَيْضَاءَ يَمْشِي بَطِيئاً، كَمَا لَوْ كَانَ مُنْتَصِباً فَوْقَ حَبْلٍ، مُبْتَسِماً لِسَعَادَتِهِ. كَانَتْ عَيْنَاهُ مُطْبَقَتَيْنِ.

— أَهُوَ ذَا مُعَلِّمُ الْأَلْوَانِ؟ سَأَلَ يُوكُو. — نَعَمْ، سُوزِيكِي، التِّشْكِيلِيُّ الْعَظِيمُ سُوزِيكِي.

— وَلَكِنَّهُ.. عَيْنَاهُ.. — نَعَمْ، قَالَ هُوزُوشِي. سَيِّدِي أَعْمَى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.21

كَيْفَ لِفَنَّانٍ تَشْكِيلِيٍّ ضَرِيرٍ أَنْ يُعَلِّمَهُ فَنَّ التَّلْوِينِ؟ أَيَكُونُ شَاعِرُ بَلَاطِ آلِ مِينِجِي قَدْ سَخِرَ مِنْهُ بِأَنْ أَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّخِذَ أُسْتَاذاً مِنْ رَجُلٍ لَا يَسْتَطِيعُ حَتَّى أَنْ يَحْكُمَ عَلَى قِيمَةِ عَمَلِهِ الشَّخْصِيِّ؟ وَفِي لَحْظَةٍ، رَغِبَ يُوكُو فِي تَرْكِ كُلِّ شَيْءٍ، فِي الرَّحِيلِ حَالًا، فِي الْعَوْدَةِ إِلَى قَرْيَتِهِ وَجِبَالِهِ الْأَثِيرَةِ. وَلَكِنَّ يَدَيْ هُورُوشِي أَمْسَكَتَا بِهِ.

— لَا تَنْصَرِفْ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ. رُبَّمَا لَمْ يَعُدْ سُوزِيكِي يَرَى تَدَرُّجَ الْأَلْوَانِ وَتَبَايُنَهَا، وَلَكِنَّ رُوحَهُ تُدْرِكُ مَا لَا تَسْتَطِيعُ عَيْنَاكَ رُؤْيَتَهُ. تَعَالَ، سَأُقَدِّمُكَ إِلَيْهِ. — مَاذَا بِإِمْكَانِ أَعْمَى أَنْ يُعَلِّمَنِي عَنْ مَدَى الْأَلْوَانِ؟ — بِقَدْرِ مَا يُفْكِنُ أَنْ يُعَلِّمَكَ عَنِ النِّسَاءِ. مَعَ أَنَّهُ، مُنْذُ أَمَدٍ طَوِيلٍ، لَمْ يَعُدْ يَتَقَاسَمُ فِرَاشَهُ مَعَ أَيَّةِ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ. لَا تَنْخَدِعْ بِالْمَظَاهِرِ. ذَاكَ لَا يُجْدِي إِلَّا فِي التِّينِ.

كَانَ هُورُوشِي يَدْفَعُ يُوكُو أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَقُودُهُ لِتَحِيَّةِ الْمُعَلِّمِ.

— مَنْ أَنْتَ؟ وَمَاذَا تُرِيدُ مِنِّي؟ سَأَلَ سُوزِيكِي، بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ هُورُوشِي يُوكُو. — أَنَا يُوكُو، شَاعِرُ الثَّلْجِ. قَصَائِدِي جَمِيلَةٌ، وَلَكِنَّهَا ذَاتُ بَيَاضٍ يَبْعَثُ عَلَى الْيَأْسِ. عَلِّمْنِي، أَيْ مُعَلِّمُ، كَيْفَ أَرْسُمُ. عَلِّمْنِي الْأَلْوَانَ.

تَبَسَّمَ سُوزِيكِي وَأَجَابَ: — عَلِّمْنِي أَوَّلًا الثَّلْجَ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.22

لَمْ تَكُنْ دُرُوسُ الْمُعَلِّمِ شَبِيهَةً بِأَيَّةِ دُرُوسٍ أُخْرَى.

فِي أَوَّلِ حِصَّةٍ صَبَاحِيَّةٍ، عِنْدَ النَّهْرِ الَّذِي كَانَ بَعْدُ يَغْمُرُهُ الْفَجْرُ، طَلَبَ مِنْ يُوكُو أَنْ يُطْبِقَ عَيْنَيْهِ وَأَنْ يَتَخَيَّلَ اللَّوْنَ.

– اَللَّوْنُ لَيْسَ خَارِجاً. إِنَّهُ بِدَوَاخِلِنَا. وَخَدَهُ الضَّوْءُ بِالْخَارِجِ، قَالَ. مَاذَا تَرَى؟ – لَا شَيْءَ. وَعَيْنَايَ مُطْبَقَتَانِ، لَا أَرَى إِلَّا السَّوَادَ؟ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ – لَا، أَجَابَ سُوزِيكِي. أَنَا مَا زِلْتُ أَرَى زُرْقَةَ الضَّفَادِعِ وَصُفْرَةَ السَّمَاءِ. فَمَنْ، إِذَنْ، فِينَا أَشَدُّ عَمًى مِنَ الْآخَرِ؟

وَدَّ يُوكُو لَوْ يَقُولُ لَهُ بِأَنَّ السَّمَاءَ لَيْسَتْ صَفْرَاءَ، وَالضَّفَادِعُ لَيْسَتْ زَرْقَاءَ، وَلَكِنَّهُ أُخْجِمَ عَنْ أَيِّ تَعْلِيقٍ. رُبَّمَا جُنَّ الشَّيْخُ. أَوْ صَارَ، بِكُلِّ بَسَاطَةٍ، خَرِفاً. لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ تَخْيِيبَ أَمَلِهِ.

– مُعَلِّمِي، قَالَ، بَدَأْتُ أَرَى. – مَاذَا تَرَى؟

– أَرَى حُفْرَةَ الْأَشْجَارِ. – أَيُّهَا الْأَبْلَهُ، قَالَ سُوزِيكِي. هَذَا مُسْتَحِيلٌ. لَا أَشْجَارَ هُنَا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.23

– فِي الصَّبِيحَةِ التَّالِيَةِ، طَلَبَ الْمُعَلِّمُ مِنْ يُوكُو أَنْ يُطْبِقَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ: – اَلضَّوْءُ دَاخِلِيٌّ. إِنَّهُ بِدَوَاخِلِنَا. وَحْدَهُ اللَّوْنُ بِالْخَارِجِ. أَطْبِقْ عَيْنَيْكَ وَقُلْ لِي مَا تَرَاهُ. – مُعَلِّمِي، قَالَ يُوكُو، أَرَى ضَوْءَ الثَّلْجِ الْأَبْيَضَ.

وَهُوَ يَقُولُ هَذَا، تَمَلَّكَتْهُ الرَّغْبَةُ فِي الضِّحِكِ. كَانَ صَبَاحاً رَبِيعِيًّا جَمِيلًا. وَكَانَتِ الشَّمْسُ سَاخِنَةً كَسِنْدَانٍ.

– حَقًّا، قَالَ سُوزِيكِي، خِلَالَ هَذَا الشِّتَاءِ، كَانَ ثَمَّةَ ثَلْجٌ فِي هَذَا الْمَكَانِ. بَدَأْتَ تَصِيرُ رَائِياً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.24

هَكَذَا قُبِلَ يُوكُو لِمُتَابَعَةِ دُرُوسِ الْمُعَلِّمِ كَامِلَ السَّنَةِ.

وَصَارَ هُورُوشِي، الْخَادِمُ، صَدِيقاً لَهُ. كَانَا يَتَقَاسَمَانِ مَعاً الْغُرْفَةَ نَفْسَهَا.

ذَاتَ مَسَاءٍ، سَأَلَهُ يُوكُو: — مَنْ يَكُونُ الْمُعَلِّمُ حَقًّا؟ وَهَلْ يَعْرِفُ حَقًّا الْفَنَّ فِي كَامِلِ امْتِدَادَاتِهِ؟ — سُوزُيكِي أُعْظَمُ فَنَّانٍ فِي الْيَابَانِ. يَعْرِفُ التَّشْكِيلَ، وَالْمُوسِيقَى، وَالشِّعْرَ، وَفَنَّ الْخَطِّ، وَالرَّقْصَ. وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ فَنُّهُ لِيُوجَدَ لَوْلَا حُبُّهُ لِامْرَأَةٍ. — اِمْرَأَة؟ سَاءَلَهُ يُوكُو. — أَيْ نَعَمْ، اِمْرَأَة. لِأَنَّ الْحُبَّ، بِالتَّأْكِيدِ، أَصْعَبُ الْفُنُونِ. وَالْكِتَابَةُ، وَالرَّقْصُ، وَالتَّأْلِيفُ الْمُوسِيقِيُّ، وَالرَّسْمُ، أُمُورٌ كَالْحُبِّ. بَهْلَوَانِيَّاتٌ فَوْقَ حَبْلٍ. وَالْأَصْعَبُ، أَنْ تَتَقَدَّمَ دُونَ أَنْ تَسْقُطَ. أَمَّا سُوزِيكِي، فَقَدِ انْتَهَى بِهِ الْأَمْرُ أَنْ وَقَعَ فِي حُبِّ امْرَأَةٍ. وَحَدَهُ الْفَنُّ أَنْقَذَهُ مِنَ الْيَأْسِ وَالْمَوْتِ. وَتِلْكَ قِصَّةٌ تَطُولُ، وَسَتَبْعَثُ فِيكَ الْمَلَلَ، عَلَى مَا أَظُنُّ. — آهٍ، تَوَسَّلَ يُوكُو، أَزْجُوكَ، اِحْكِ لِي! — تَعُودُ هَذِهِ الْقِصَّةُ لِزَمَنٍ كَانَ فِيهِ الْمُعَلِّمُ سَامُورَايَاً. — سُوزِيكِي؟ سَامُورَايَاً؟ اِحْكِ، احْكِ، رَحِمَكَ!

اِرْتَشَفَ هُورُوشِي قَدَحَ شَايٍ، وَأَمَامَ إِلْحَاحِ الْفَتَى اسْتَغْرَقَ فِي ذِكْرَيَاتِهِ.

— بَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ سِخراً..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.25

بَدَأَ كُلُّ شَيءٍ سِخراً. ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ شِتَاءِ ..18، بَيْنَمَا كَانَ عَائِداً مِنَ الْحَرْبِ، سَقَطَ سُوزِيكِي فِي شِبَاكِ الْحُبِّ، حُبِّ امْرَأَةٍ، يَخَالُهَا الْمَرْءُ بِلَا نَظِيرٍ.

فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، كَانَ سَيِّدِي سَامُورَايَاً فِي خِدْمَةِ الْإِمْبَرَاطُورِ.

كَانَ سُوزِيكِي قَدْ خَاضَ حَرْباً شَرِسَةً حَيْثُ حَقَّقَ جَيْشُهُ نَصْراً سَاطِعاً، جَمِيلًا، غَيْرَ مُتَوَقَّعٍ. عَادَ إِذَنْ ظَافِراً. مُنْتَصِراً، وَلَكِنْ جَرِيحاً. كَانَ أَحَدُ الْمُحَارِبِينَ الْمَوْتَى قَدِ اخْتَرَقَ كَتِفَهُ بِضَرْبَةِ سَيْفٍ بَعْدَ أَنْ حَزَّتْ رَأْسَهُ كُرَةُ مِدْفَعٍ. كَانَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ حَاضِرَةً أَمَامَ نَاظِرَيْهِ: طَعْمُ الْوَحَلِ وَالدَّمِ مِلْءَ الْفَمِ، مُحَارِبُو جَيْشِ الْعَدُوِّ يَتَكَالَبُونَ عَلَيْهِ، وَجْهُ الْعَدُوِّ إِذْ تَعْتَرِيهِ تَكْشِيرَةُ الْحِقْدِ. كَانَ الرَّجُلُ قَدِ ارْتَمَى عَلَيْهِ، مُسْتَعِدًّا لِطَعْنِهِ. ثُمَّ كَانَتْ ثَمَّةَ شَفْرَةُ سَيْفٍ بَارِدَةٌ فَوْقَ جَبْهَتِهِ، انْفِجَارٌ، زَمْجَرَةُ رَعْدٍ، ثُمَّ لَا شَيْءَ عَدَا جَسَدٍ بِلَا رَأْسٍ، جَسَدٍ كَانَ يَتَحَرَّكُ وَيَمْشِي قَبْلَ أَنْ يَهْوِيَ عَلَيْهِ وَيَغْرِسَ شَفْرَةَ سَيْفِهِ فِي كَتِفِهِ، بِكُلِّ ثِقْلِ الْمَيِّتِ الَّذِي صَارَهُ، كَمَا لَوْ كَانَ يُرِيدُ إِفْهَامَهُ أَهْوَالَ سَاحَةِ حَرْبٍ لَمْ يَكُنْ لَا لِهَذَا وَلَا لِذَاكَ أَنْ يُدْرِكَاهَا. وَلَكِنْ هَا قَدْ حَصَلَ مَا حَصَلَ. كَانَ ذَاكَ زَمَناً لِلشَّرَفِ. وَكَانَتْ لِلْحَرْبِ مَبَاهِجُهَا. كَانَ يَنْبَغِي لِلْمُحَارِبِ أَنْ يَمُوتَ أَوْ يَعُودَ مُثْخَناً بِالْجِرَاحِ.

لَمْ يَسْتَطِعِ السَّامُورَايْ أَبَداً أَنْ يَنْسَى صُورَةَ ذَاكَ الرَّجُلِ بِلَا رَأْسٍ. كَانَ ذَاكَ أَبْشَعَ مَا قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَرَاهُ طَوَالَ حَيَاتِهِ.

بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَدَ وَعْيَهُ. تَرَكُوهُ فِي سَاحَةِ الْقِتَالِ ظَانِّينَ أَنَّهُ قُتِلَ. بَقِيَ لِلَيْلَةٍ كَامِلَةٍ تَحْتَ هَذَا الْجَسَدِ الْمَقْطُوعِ الرَّأْسِ. فِي الصَّبَاحِ، انْتَهَى الْأَمْرُ بِأَنْ سَمِعُوا أَنَّاتِهِ. سُحِبَ الْمَيِّتُ لِيُكْشَفَ عَنْ وَجْهِ سُوزِيكِي الْمُرَوَّعِ. عُولِجَ، وَلَكِنَّهُ بَقِيَ يَهْذِي لِأَيَّامٍ. بَعْدَ أُسْبُوعٍ، كَانَتْ مَعَالِمُ الْخَوْفِ بَعْدُ ظَاهِرَةً فِي عَيْنَيْهِ.

أَتَى الْإِمْبَرَاطُورُ لِتَهْنِئَتِهِ مِمَّا جَعَلَ سُوزِيكِي يَزْهُو قَلِيلًا بِتِلْكَ الزِّيَارَةِ، وَلَوْ أَنَّ الزَّهْوَ كَانَ مَشُوباً بِالْحَسْرَةِ عَلَى مَا عَاشَهُ.

حِينَ اسْتَرْجَعَ أُخِيراً قُوَاهُ، سَلَكَ طَرِيقَ الْعَوْدَةِ. لَمْ يَكُنْ جُرْحُهُ مَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَمُوَاصَلَةِ خَوْضِ الْمَعَارِكِ — كَانَ قَدْ جُرِحَ سِتَّ مَرَّاتٍ مُنْذُ بِدَايَةِ الْحَمْلَةِ — وَلَكِنْ بِكُلِّ بَسَاطَةٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قَرَفُهُ مِنَ الْحَرْبِ. هُوَ الَّذِي كَانَ قَدْ كَرَّسَ حَيَاتَهُ لِلْجَيْشِ يَتَبَيَّنُ لَهُ الْآنَ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ مُحِبًّا لِلْقَتْلِ.

غَادَرَ الْجَيْشَ إِذَنْ وَعَادَ رَاجِلًا إِلَى بَيْتِهِ. وَهُنَاكَ، فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ، حَدَثَتِ الْأُعْجُوبَةُ.

مُزْتَعِداً، خَائِرَ الْقُوَى، مَعَ بَشَاعَةِ الْحَرْبِ الَّتِي تَغْمُرُ عَيْنَيْهِ، وَجِيداً فِي كَثَافَةِ الْعَتَمَةِ وَالْمَأْسَاةِ الَّتِي عَاشَهَا، وَجِيداً فِي غَوْرِ الشِّتَاءِ، وَجِيداً فِي دُوَارِ الْوَحْدَةِ، وَجِيداً فِي صَفْتِهِ، بَيْنَمَا كَانَ يَتَوَجَّبُ أَنْ يَمُوتَ مِئَةَ مَرَّةٍ مِنَ الْبَرْدِ، وَالْجُوعِ، وَالْغَمِّ، وَالضَّجَرِ، بَقِيَ حَيًّا.

بَقِيَ حَيًّا لِأَنَّ مَا رَآهُ يَوْمَذَاكَ، ذَاكَ الشَّيْءَ، ذَاكَ الشَّيْءَ الْبَدِيعَ الْقَادِمَ بِدَوْرِهِ مِنَ الْجِهَةِ الْأُخْرَى لِلْوَاقِعِ، لِيُقِيمَ دُونَمَا شَكٍّ تَوَازُناً مَعَ بَشَاعَةِ الرَّجُلِ بِلَا رَأْسٍ، ذَاكَ الشَّيْءَ السَّامِيَ وَالْجَمِيلَ كَانَ أَجْمَلَ وَأَسْمَى صُورَةٍ قُيِّضَ لَهُ أَنْ يَرَاهَا طَوَالَ حَيَاتِهِ. وَهِيَ صُورَةٌ لَمْ يَنْسَهَا السَّامُورَايُ مَا حَيِيَ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.26

تِلْك الصُورَةُ كَانَت لِامرَأةٍ شَابّةٍ تَحفَظُ تَوَازُنَهَا فَوقَ حَبلٍ، امرَأةٍ شَابّةٍ فِي خِفّةِ طَيرٍ، بَهلَوَانَةٍ تَتَحَرّكُ بِبَهَاءِ سِنجَابٍ فَوقَ النّهرِ الْمُفَضّضِ.

كَانَت عَلَى ارتِفَاعِ أكثَرَ مِن سِتّينَ قَدَماً فَوقَ سَطحِ الْأرضِ. لَم تَكُن تَمشِي عَلَى حَبلٍ، كَانَت ثَابِتَةً فِي الْهَوَاءِ سِخراً. مِن أبعَدِ مَكَانٍ تُرمَقُ مِنهُ، وَاقِفَةً عَلَى حَبلِهَا اللّامَرئِيّ، بِعَصَا التّوَازُنِ بَينَ الْيَدَينِ، مُتَزَخلِقَةً بِخِفّةٍ فَوقَ اللّازَوَردِ، نَظُنّهَا مَلَاكاً.

دَنَا سُوزِيكِي بِبُطءٍ مِنَ النّهرِ فَسَحَرَهُ جَمَالُ الْمَرأةِ الشّابّةِ. كَانَت هِيَ الْمَرّةَ الْأُولَى الّتِي يَرَى فِيهَا أُورُبِّيّةً. وَكَانَت تَبدُو طَائِرَةً فِي الْهَوَاءِ.

تَقَدّمَ مَشدُوهاً. فِي هَذِهِ الْمَرّةِ، كَانَت فَوقَهُ تَمَاماً.

عَلَى حَافَةِ النّهرِ، كَانَ ثَمّةَ حَشدُ هَائِلٌ تَجَمّعَ لِرُؤيَةِ التّجَلّي الْغَرِيبِ.

دَنَا سُوزِيكِي مِن أحَدِ الشّيُوخِ وَسَأَلَهُ مُبقِياً رَأسَهُ مُتَطَلّعاً: — مَن تَكُونُ؟

أجَابَ الشّيخُ، دُونَ أن يُلقِي وَلَو نَظرَةً عَلَى سُوزِيكِي، مَعَ ارتِجَافَةٍ فِي صَوتِهِ: — إنّهَا بَهلَوَانَةٌ، إلّا إن كَانَت طَائِراً أشقَرَ تَائِهاً فِي الْهَوَاءِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.27

كَانَت بَهلَوَانَةً، وَكَانَت حَيَاتُهَا مُتَمَسِّكَةً بِحَبلٍ وَاحِدٍ. مُستَقِيمٍ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.28

قَادِمَةٌ مِنْ بَارِيسَ، بِفَرَنْسَا. اِسْمُهَا ثَلْج. سُمِّيَت كَذَلِك لِأَنَّ إِهَابَهَا كَانَ ذَا بَيَاضٍ نَاصِعٍ، بِعَيْنَيْنِ مِنْ صَقِيعٍ وَشَعْرٍ ذَهَبٍ. وَلِأَنَّهَا أَيْضاً، حِينَ تَتَقَدَّمُ فِي الْهَوَاءِ، تَبْدُو خَفِيفَةً كَنُدْفَةِ ثَلْجٍ.

هَكَذَا بَدَأَ الْأَمْرُ. ذَاتَ يَوْمٍ، بَيْنَمَا كَانَت بَعْدُ طِفْلَةً، تَقَاطَعَت طَرِيقُهَا مَعَ سِيزِكِ جَوَّالٍ. بَهَرَهَا أَنْ تَسْتَطِيعَ الْحُلْمَ مَفْتُوحَةَ الْعَيْنَيْنِ.

دُونَ اكْتِرَاثٍ بِالْخَطَرِ، قَرَّرَت أَنْ تَجْعَلَ مِنَ الْأَمْرِ مِهْنَةً لَهَا. بَعْدَ بَعْضِ التَّرَدُّدِ، اخْتَارَت أَنْ تَصِيرَ بَهْلَوَانَةً عَلَى أَسْلَاكِ الْحَدِيدِ. وَشَيْئاً فَشَيْئاً بَدَأَت تَنْحُو نَحْوَ الْأُعْلَى فِي الْارْتِقَاءِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ فَنِّهَا. وَهَكَذَا صَارَت مِنْ بَيْنِ أُولَيَاتِ النِّسَاءِ الْبَهْلَوَانَاتِ.

صَعَدَت فَوْقَ حَبْلٍ وَلَمْ تَنْزِلْ مِنْهُ أَبَداً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.29

صَارَتْ ثَلْج بَهْلَوَانَةً لِاهْتِمَامِهَا بِالتَّوَازُنِ. هِيَ – الَّتِي كَانَتْ حَيَاتُهَا تَجْرِي كَحَبْلٍ مُتَعَرِّجٍ شَبَكَتْهُ عُقَدٌ يَرْبِطُهَا وَيَفُكُّهَا الْتِوَاءُ الصُّدْفَةِ وَابْتِذَالُ الْوُجُودِ – كَانَتْ بَارِعَةً فِي الْفَنِّ الدَّقِيقِ وَالْخَطِرِ الْمُتَجَلِّي فِي التَّقَدُّمِ فَوْقَ حَبْلٍ مَشْدُودٍ.

لَمْ تَكُنْ أَبَداً فِي كَامِلِ الِارْتِيَاحِ إِلَّا حِينَ كَانَتْ تَمْشِي عَلَى ارْتِفَاعِ أَلْفِ قَدَمٍ فَوْقَ سَطْحِ الْأَرْضِ. دُونَ أَنْ تَحِيدَ عَنْ طَرِيقِهَا أَبَداً وَلَوْ بِمِلِيمِتْرٍ وَاحِدٍ.

كَانَ ذَاكَ قَدَرَهَا.

أَنْ تَتَقَدَّمَ خُطْوَةً خُطْوَةً.

مِنْ أَقْصَى الْحَيَاةِ إِلَى أَقْصَاهَا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.30

كَانَتْ قَدْ دَوَّخَتْ جَمِيعَ سَاحَاتِ أُورُبَّا بِإِنْجَازَاتِهَا. فِي سِنِّ السَّابِعَةِ عَشْرَةَ، كَانَتْ تَلْجِ قَدْ قَطَعَتْ أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ كِيلُومِتْرٍ فَوْقَ حَبْلِهَا الْمَشْدُودِ، مُخَاطِرَةً فِي أَحْايِينَ كَثِيرَةٍ بِحَيَاتِهَا.

كَانَتْ قَدْ مَدَّتْ حَبْلَهَا بَيْنَ بُرْجَيْ كَنِيسَةِ السَّيِّدَةِ الْعَذْرَاءِ بِبَارِيسَ وَبَقِيَتْ لِسَاعَاتٍ مُحَافِظَةً عَلَى تَوَازُنِهَا فَوْقَ الْكَاتِدْرَائِيَّةِ، كَإِسْمِرَالْدَا(3) مِنْ رِيحٍ وثَلْجٍ وَصَفِيرٍ.

ثُمَّ أَعَادَتْ مُنْجَزَهَا فِي كُلِّ عَاصِمَةٍ مِنْ عَوَاصِمِ أُورُبَّا، مُتَحَدِّيَةً فِي كُلِّ مَرَّةٍ قَوَانِينَ التَّوَازُنِ.

لَمْ تَكُنْ بَهْلَوَانَةً عَادِيَّةً. كَانَتْ تَتَقَدَّمُ فِي الْهَوَاءِ سِحْراً.

مِنْ أَبْعَدِ نُقْطَةٍ يُمْكِنُ أَنْ نَرْمُقَهَا مِنْهَا، بِجَسَدِهَا الْمُنْتَصِبِ فِي السَّمَاءِ كَشُعْلَةٍ بَيْضَاءَ، بِشَعْرِهَا الذَّهَبِ الَّذِي تُدَاعِبُهُ الرِّيَاحُ، كَانَ الْجَمِيعُ يَخَالُهَا إِلَهَةَ الثَّلْجِ.

فَمَا كَانَ صَعْباً عَلَيْهَا، فِي الْحَقِيقَةِ، لَمْ يَكُنْ أَنْ تَحْفَظَ تَوَازُنَهَا، وَلَا حَتَّى أَنْ تُسَيْطِرَ عَلَى خَوْفِهَا، وَلَا أَيْضاً أَنْ تَمْشِي فَوْقَ هَذَا الْحَبْلِ الْمُتَوَاصِلِ، هَذَا الْحَبْلِ مِنْ مُوسِيقَى الَّذِي تَتَخَلَّلُهُ دَوْخَاتٌ بَاهِرَةٌ؛ مَا كَانَ أَصْعَبَ، حِينَ كَانَتْ تَتَقَدَّمُ وَسْطَ ضِيَاءِ الْعَالَمِ، هُوَ أَنْ لَا تَتَحَوَّلَ إِلَى نُدْفَةِ ثَلْجٍ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.31

ذَاتَ يَوْمٍ تَلَقَّتِ الطَّلَبَاتِ مِنْ جَمِيعِ أَصْقَاعِ الْعَالَمِ. هَكَذَا عَبَرَتْ شَلَّالَاتِ نْيَاگَارَا وَنَهْرَ كُولُورَادُو.

وَدُونَ أَنْ تُدرِكَ كَيْفَ، انْتَهَى بِهَا الْأَمْرُ أَنْ حَطَّتْ فِي الْيَابَانِ، لِحُسْنِ حَظِّ سُوزِيكِي.

كَانَتْ هِيَ الْمَرَّةَ الْأُولَى الَّتِي يُتَاحُ فِيهَا لِفَنَّانَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ أَنْ تُقَدِّمَ عَرْضاً فِي بِلَادِ السَّامُورَايْ.

وَكَانَ أَحَدُ هَؤُلَاءِ السَّامُورَايْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا مُغْرَماً بِهَا.

كَانَتْ تَبْدُو، فِي نَاظِرَيْ سُوزِيكِي، قَصِيدَةً، لَوْحَةً، تَخْطِيطاً، رَقْصَةً وَمَقْطُوعَةً مُوسِيقِيَّةً فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ. كَانَتْ ثَلْجَ وَكَانَتْ تُمَثِّلُ كُلَّ جَمَالِ الْفَنِّ.

حِينَ أَنْهَتْ عَرْضَهَا، حِينَ عَادَتْ أَخِيراً لِلْأَرْضِ، لَمْ يَسْتَطِعْ سُوزِيكِي أَنْ يُقَاوِمَ رَغْبَتَهُ فِي مُفَاتَحَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ الْجَمِيلَةِ. دَنَا مِنْهَا، اكْتَشَفَ رِقَّةَ تَقَاسِيمِ وَجْهِهَا، اسْتِدَارَةَ فَمِهَا، خَطَّ حَاجِبَيْهَا وَأَدْرَكَ سَاعَتَئِذٍ أَنَّهُ أَبَداً لَنْ يَسْتَطِيعَ نِسْيَانَ هَذَا الْوَجْهِ. نَظَرَ فِي عَيْنَيْهَا وَتَفَرَّسَ فِيهِ بِدَوْرِهَا. وَلَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ حَاجَةٌ إِلَى قَوْلِ الْمَزِيدِ. بَدَأَتْ تَتَبَسَّمُ، وَفِي تِلْكَ الِابْتِسَامَةِ ضَاعَتْ مِنْ سُوزِيكِي رُوحُهُ.

لَامَسَ بِإِحْدَى رُكْبَتَيْهِ الْأَرْضَ، أَلْقَى سَيْفَهُ عِنْدَ قَدَمَيْهَا وَقَالَ لَهَا: — أَنْتِ مَنْ كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْهَا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.32

لَمْ تَكُنْ ثَلْج تَبحثُ عَنْ أحدٍ. وَلَكِنَّهَا وَجدَتْ فِعْلَ سوزِيكِي ذَا جَمَالٍ سِرِّهَا. فَتَزَوَّجَتْهُ.

كَانَتِ السَّنَوَاتُ الْأُولَى سَعِيدَةً، إِذْ إِنَّ مَوْلُوداً أُتِى لِيُمَتِّنَ رَوَابِطَ الزَّوْجَيْنِ. بِنْتٌ. كَانَ لَهَا جَمَالُ أُمِّهَا الشَّفِيفُ وَسَوَادُ شَعْرِ أَبِيهَا. أُسمَيَاهَا نُدفَةَ الرَّبِيعِ.

كَانَتْ حَيَاتُهُمَا سَكِينَةً وَصَفتاً صَارَتْ ثَلْج تَتَكَيَّفُ بِتَوَانٍ مَعَ الْيَابَانِ. كَانَ يَنْتَابُهَا الْحَنِينُ لِلْوَطَنِ أَحْيَاناً، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَشْكُو أَبَداً. مَا كَانَتْ تَحِنُّ إِلَيْهِ أَكْثَرَ، كَانَ مَعَ ذَلِكَ شَيْئاً آخَرَ: كَانَ مِهْنَتَهَا كَبَهْلَوَانَةٍ.

Telegram:@mbooks90

ذَاتَ لَيْلَةٍ رَأَتْ فِي الْمَنَامِ أَنَّهَا تَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ. فِي الْغَدِ، حِينَ اسْتَفَاقَتْ، فَكَّرَتْ فِي الْأَمْرِ مَلِيًّا. ثُمَّ طَرَحَتْهُ مِنْ بَالِهَا تَمَامًا.

حَلَّ فَصْلُ الشِّتَاءِ، فَالرَّبِيعُ. بَدَأَتِ الْبِنْتُ تَكْبُرُ فِي بَهَاءِ الضِّيَاءِ. كَانَتْ ثَلْج سَعِيدَةً. حُبُّ سُوزِيكِي فِي يَدٍ، وَفِي الْيَدِ الْأُخْرَى قَلْبُهَا الَّذِي تَفْتَحُهُ لِلْبِنْتِ. وَكَانَتْ عَصَا التَّوَازُنِ الْهَشَّةُ هَذِهِ كَافِيَةً لِحَفْظِ تَوَازُنِهَا فَوْقَ حَبْلِ السَّعَادَةِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.33

ذَاتَ يَوْمٍ، رَغْمَ ذَلِك، صَارَ تَوَازُنُ هَذِهِ الْعَصَا بَالِغَ الْهَشَاشَةِ فَتَكَسَّرَتْ.

ذَاتَ يَوْمٍ، لَمْ يَعُدِ الْحَنَانُ الَّذِي يَبْذُلُهُ ذَانِك الْكَائِنَانِ الْعَزِيزَانِ كَافِياً لِكَيْ تَبْقَى سَعِيدَةً. كَانَتْ تَحِنُّ لِحَيَاةِ الْهَوَاءِ بِعُنْفُوَانِ. كَانَتْ مِنْ جَدِيدٍ مُتَعَطِّشَةً إِلَى الدُّوخَةِ، إِلَى الرِّعْشَاتِ، إِلَى كُشُوفٍ جَدِيدَةٍ. كَانَتْ، بِكُلِّ بَسَاطَةٍ، تَرْغَبُ فِي أَنْ تَصِيرَ بَهْلَوَانَةً مِنْ جَدِيدٍ.

طَلَبَتْ مِنْ سُوزِيكِي الْإِذْنَ بِتَنْظِيمِ عَرْضٍ أَخِيرٍ. كَانَتْ تُرِيدُ مَدَّ حَبْلٍ مِنْ جَبَلٍ إِلَى آخَرَ، فِي قَلْبِ أَعْلَى جِبَالِ الْيَابَانِ.

لَا شَكَّ أَنَّ زَوْجَهَا وَصَفَ هَذِهِ الرَّغْبَةَ بِالْجُنُونِ، مُقَدِّراً أَنَّهُ أَمْرٌ مَخْفُوفٌ بِالْمَخَاطِرِ أَنْ تَضَعَ هَكَذَا حَيَاتَهَا رَهْنَ إِشَارَةِ مَشْرُوعٍ كَهَذَا؛ وَلَكِنْ، كَسَامُورَايٍ حَقِيقِيٍّ، انْصَاعَ لِرَغْبَتِهَا وَامْتَثَلَ.

اِسْتَجْلَبَ مِنْ أُورُبَّا حَبْلَيْنِ مَفْتُولَيْنِ مِنَ الْفُولَاذِ: أَحَدُهُمَا قَصِيرٌ جِدًّا وَذُو جَدَائِلَ صَغِيرَةٍ، وَالْآخَرُ ذُو قُطْرٍ مُعْتَبَرٍ وَطُولٍ كُلِّيٍّ مِنْ خَمْسِمِئَةِ مِتْرٍ. ثُمَّ بَعَثَ اثْنَيْنِ مِنْ خَدَمِهِ لِتَثْبِيتِ الْحَبْلِ الْأَطْوَلِ فَوْقَ سَفْحِ جَبَلٍ عَالٍ، وَسَطَ هُونْشُو.

أَمَّا ثَلْج، فَقَدْ سَحَبَتْ مِنْ خُرْجِهَا عَصَا تَوَازُنِهَا، وَانْتَعَلَتْ خُفَّيْهَا، كَمَا هُوَ لَدَى رَاقِصَاتِ الْبَالِيهِ، وَتَدَرَّبَتْ لِسَاعَاتٍ طِوَالٍ فِي الْحَدِيقَةِ عَلَى الْعُبُورِ مَثْنَى وَثُلَاثَ، فَوْقَ الْحَبْلِ الْقَصِيرِ، عُبُورِ جِبَالٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الزُّهُورِ وَأُوقْيَانُوسٍ مُصَغَّرٍ يَظْفُو فَوْقَهُ النِّيلُوفَرُ.

لَمْ يَكُنْ سُوزِيكِي يَكِلُّ أَبَداً مِنْ مُشَاهَدَتِهَا. كَانَتْ زَوْجَتُهُ رَاقِصَةً عَلَى الْحَبْلِ مُنْقَطِعَةَ النَّظِيرِ. كَانَتْ ثَلْج، فَوْقَ هَذَا الْحَبْلِ، فِي قِمَّةِ السَّعَادَةِ، فِي قِمَّةِ الْجَمَالِ، فِي قِمَّةِ أُثِيرِيَّتِهَا بِحَيْثُ كَانَ يَشْكُرُ السَّمَاءَ أَنَّهَا وَهَبَتْهَا لَهُ.

كَانَ شَعْرُهَا أَشْقَرَ. نَظْرَتُهَا شَفِيفَةً.

كَانَتْ تَمْشِي فِي الْهَوَاءِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.34

حُدِّدَتْ لِلْعَرْضِ أُولَى أَيَّامِ الصَّيْفِ. أَتَى النَّاسُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ فِي الْبَلَدِ لِيَشْهَدُوا إِقْدَامَ الشَّابَّةِ الْفَرَنْسِيَّةِ. يُحْكَى أَنَّ الْإِمْبَرَاطُورَ بِعَيْنِيهِ شَهِدَ ذَاكَ الْعَرْضَ الْخَلَّابَ، إِلَى جَنْبِ السَّامُورَايِ.

حِينَ وَضَعَتْ ثَلْجَ قَدَمَهَا عَلَى الْحَبْلِ، سَرَتِ الْوَشْوَشَاتُ بَيْنَ الْحَشْدِ. كَانَ الْمَشْهَدُ فِي الْعُلَى، يَبْعَثُ عَلَى الدُّوَارِ، بِحَيْثُ لَمْ تَبْدُ ثَلْجُ إِلَّا نُقْطَةً بَيْضَاءَ فِي الْفَضَاءِ، نُدْفَةَ ثَلْجٍ فِي فَسَاحَةِ السَّمَاءِ.

مُجَهِّزَةً بِعَصَا التَّوَازُنِ، كَانَتْ ثَلْجُ تَتَقَدَّمُ مُتَسَامِيَةً عَنِ الْأَرْضِ، خِلَالَ مَا يَزِيدُ عَلَى السَّاعَةِ وَالنِّصْفِ، مُقْتَرِبَةً، شَيْئاً فَشَيْئاً، مِنَ السَّفْحِ الْآخَرِ لِلْجَبَلِ. فِي الْأَسْفَلِ، كَانَ النَّاسُ يَحْبِسُونَ أَنْفَاسَهُمْ. خُطْوَةً خَاطِئَةً وَيَكُونُ الْمَوْتُ مُحَقَّقاً.

وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ الشَّابَّةَ، بِإِتْقَانِهَا الْمُحْكَمِ لِفَنِّهَا، كَانَتْ تَتَقَدَّمُ بِثَبَاتٍ، خُطْوَةً خُطْوَةً، نَفَساً بَعْدَ نَفَسٍ، صَفْتاً بَعْدَ صَفْتٍ، مِنْ دَوْخَةٍ إِلَى دَوْخَةٍ.

لَمْ تَتَعَثَّرِ الْبَتَّةَ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.35

اَلْحَبْلُ، انْقَطَعَ الْحَبْلُ. لِأَنَّ الْحَبْلَ، بِلَا شَكٍّ، لَمْ يُشَدَّ بِشَكْلٍ جَيِّدٍ، فَقَدِ انْفَكَّ عَنِ الصَّخْرَةِ، جارِفاً مَعَهُ الْمَرْأَةَ الشَّابَّةَ وَعَصَا التَّوَازُنِ فِي سُقُوطٍ بَلَغَ مَسَارُهُ زُهَاءَ أَلْفِ قَدَمٍ. مِنْ أُبْعَدِ نُقْطَةٍ شُوهِدَتْ وَهِيَ تَخْتَفِي، فِي قَلْبِ أَعْلَى جِبَالِ الْيَابَانِ، يَخَالُهَا الْمَرءُ طَائِراً يَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ.

لَمْ يُغْتَزَ أَبَداً عَلَى جَسَدِهَا، لَا شَكَّ أَنَّ شَقًّا فِي الْأَرْضِ ابْتَلَعَهُ. صَارَتْ ثَلْج ثَلْجاً، وَكَانَتْ تَنَامُ فِي فِرَاشِ الْبَيَاضِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.36

لَمْ يُشْفَ سوزِيكِي أَبَداً مِنْ فُقْدَانِ زَوْجَتِهِ. صُرِفَ الْخَادِمَانِ الْمُذْنِبَانِ دُونَ أَيِّ إِجْرَاءِ عِقَابِيٍّ آخَرَ. تَنَاهَى إِلَيْنَا، بَعْدَ أَيَّامٍ، أَنَّهُمَا انْتَحَرَا بِإِلْقَاءِ نَفْسَيْهِمَا مِنْ أَعَالِي جُرُفٍ صَخْرِيٍّ. لَمْ يَنْعَتِ الْخَبَرُ فِي السَّامُورَايِ لَا فَرَحاً وَلَا حَزَناً. لَمْ يَكُنْ يَرَى إِلَّا شَيْئاً وَاحِداً: كُرْبَتَهُ هُوَ. لَمْ يَكُنْ يُدْرِكُ إِلَّا شَيْئاً وَاحِداً: أَبَداً لَنْ يُلَاقِيَ ثَانِيَةً الْمَرْأَةَ الَّتِي أَحَبَّهَا. أَبَداً لَنْ يُلَاقِيَ ثَانِيَةً الْجَمَالَ.

بِعَوْدَتِهِ إِلَى بَيْتِهِ، الْفَارِغِ الْآنَ مِنْ كُلِّ بَهْجَةٍ، نَضَا عَنْهُ لِبَاسَ الْمُحَارِبِ. لَنْ يَبْقَى سَامُورَايًا. لَنْ يَبْقَى ضَابِطاً تَحْتَ إِمْرَةِ الْإِمْبَرَاطُورِ.

سَيُكَرِّسُ حَيَاتَهُ، مِنَ الْآنَ فَصَاعِداً، لِتَرْبِيَةِ ابْنَتِهِ وَلِلْفَنِّ. لِلْفَنِّ الْمُطْلَقِ. مِنْ خِلَالِ مُحَيَّا ابْنَتِهِ، كِانْعِكَاسٍ لِحُبِّهِ الْمَفْقُودِ، سَيَغْتَرِفُ مِنْ مَعِينِ الْإِلْهَامِ، وَفِي الْفَنِّ سَيَعْثُرُ عَلَى تَوَازُنٍ أَفْسَدَهُ اخْتِفَاءُ الْبَهْلَوَانَةِ.

هَكَذَا صَارَ — حُبًّا لِامْرَأَةٍ — شَاعِراً، وَمُوسِيقِياً، وَخَطَّاطاً، وَرَاقِصاً، وَفَنَّاناً تَشْكِيلِيًّا.

لِأَنَّ التَّشْكِيلَ كَانَ حَتْماً صِلَةَ الْوَصْلِ الْأُوفَى بَيْنَ الْوَجْهِ الْمَفْقُودِ وَالْفَنِّ الْمُطْلَقِ، الْوَسِيلَةَ الْأَوْثَقَ لِمُلَاقَاةِ ثَلْجَ ثَانِيَةً. وَفِي هَذَا الْفَنِّ بِالذَّاتِ بَرَعَ الْمُعَلِّمُ.

اِشْتَرَى سوزِيكِي لَوَازِمَ كَثِيرَةً مِنْ بَائِعِ أَصْبَاغٍ — مِسنَداً خَشَبِيًّا لِلَّوَحَاتِ، فُرْشَاتِ عَدِيدَةً مِنَ الْحَرِيرِ، مَلْوَناً، كِمِّيَّةً هَائِلَةً مِنَ الْخِضَابَاتِ —، بَنَى لَهُ كُوخاً مِنَ الْقَشِّ فِي حَدِيقَتِهِ وَأُغْلَقَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِإِحْكَامٍ. أَمْضَى ثَمَّةَ سَنَوَاتٍ طِوَالًا فِي رَسْمِ تِلْكَ الْمَيِّتَةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي لَنْ يُلَاقِيهَا ثَانِيَةً أَبَداً إِلَّا فِي الْحُلْمِ.

وَلَكِنَّ سوزِيكِي لَمْ يَقْتَنِعْ أَبَداً بِعَمَلِهِ. كَانَتْ تَبْدُو لَهُ لَوَحَاتُهُ، رَغْمَ رَوْعَتِهَا، مُغْرِقَةً فِي التَّلْوِينِ، بَعِيدَةً عَنْ مُحَاكَاةِ مَوْضُوعِهَا. لِرَسْمِ ثَلْجَ بِدِقَّةٍ، كَانَتْ تَلْزَمُهُ لَوْحَةٌ بَيْضَاءُ كَامِلَةٌ، بِكْرٌ، مُصَفَّاةٌ.

كَيْفَ لَهُ أَنْ يَرْسُمَ الْبَيَاضَ؟ كَانَتْ كُلُّ رَسْمَةٍ لِلْمَرْأَةِ الشَّابَّةِ جَمِيلَةً، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تُشْبِهُ الثَّلْجَ فِي شَيْءٍ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فَلَمْ يَكُنْ مِنْ سُوزِيكِي إِلَّا أَنْ سَعَى لِبُلُوغِ مَرَاتِبِ الْكَمَالِ بِفَنِّهِ، نَهَاراً بَعْدَ نَهَارٍ، لَيْلًا بَعْدَ لَيْلٍ، دُونَ كَلَلٍ.

ثُمَّ بَدَأَتْ تَدِبُّ فِيهِ الشَّيْخُوخَةُ. أَمَّا ابْنَتُهُ، الَّتِي صَارَتْ امْرَأَةً وَفَائِقَةَ الْجَمَالِ، فَقَدْ بُعِثَتْ إِلَى طُوكْيُو لِصَقْلِ تَرْبِيَتِهَا. فَوَجَدَ الشَّيْخُ نَفْسَهُ وَحِيداً قُبَالَةَ الْقُمَاشَةِ. أَنْهَكَ عَيْنَيْهِ فِي تَأَمُّلِ صُورَةِ زَوْجَتِهِ الْمُخْتَفِيَةِ. فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، مُجْهَدًا مِنْ عَمَلِهِ الْمُتَوَاصِلِ، صَارَ أَعْمَى.

فِي ذَاكَ الْيَوْمِ بِالذَّاتِ رَسَمَ سُوزِيكِي، مِنْ أَعْمَاقِ عَمَاهُ، أَبْهَى بُورْتْرِيهَاتِهِ بَيَاضاً وَجَمَالًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.37

— هُوَ ذَا، قَالَ هُورُوشِي، هُنَا تَنْتَهِي الْحِكَايَةُ. لَمْ يَسْتَطِعْ سَيِّدِي أَبَداً أَنْ يَنْسَى زَوْجَتَهُ، كَمَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَبَداً أَنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنْ إِجْلَالِهَا وَرَسْمِهَا. حَتَّى عِنْدَمَا صَارَ أَعْمَى. خُصُوصاً عِنْدَمَا صَارَ أَعْمَى. فَفِي السَّوَادِ الْأَكْثَرِ غَوْراً اسْتَطَاعَ سُوزِيكِي أَنْ يَرْسُمَ الْبَيَاضَ، أَنْ يَكْتَشِفَ الصَّفَاءَ. بَعْدَهَا، اكْتَشَفَ أَنَّ الضَّوْءَ الْحَقِيقِيَّ وَالْأَلْوَانَ الْحَقِيقِيَّةَ تَبْقَى إِلَى الْأَبَدِ مُرْتَبِطَةً جَوْهَرِيًّا بِجَمَالِ الرُّوحِ. لَقَدْ دَرَسَ، مِنْ خِلَالِ وَجْهِ امْرَأَةٍ مُخْتَفِيَةٍ، الْفَنَّ الْمُطْلَقَ. كَمَا تَفَنَّنَ فِي الضَّوْءِ وَتَدَرُّجَاتِهِ مِنْ خِلَالِ الْغِيَابِ الْكَامِلِ لِلضَّوْءِ. مِنَ الْعَدَمِ اسْتَخْلَصَ جَوْهَرَ الْفَنِّ. وَلِهَذَا يُعَدُّ سُوزِيكِي فَنَّاناً كَبِيراً.

صَمَتَ الْخَادِمُ لِلَحْظَةٍ وَانْتَابَ يُوكُو دُوَارٌ. نَظَرَ نَحْوَ الشَّيْخِ وَقَالَ: — أَعْرِفُ أَيْنَ تُوجَدُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ. لَاقَيْتُهَا وَأَنَا قَادِمٌ إِلَى هُنَا. إِنَّهَا مَيِّتَةٌ، وَلَكِنْ كَمَا لَوْ أَنَّهَا مَا تَزَالُ حَيَّةٌ. إِنَّهَا تُقِيمُ فِي تَابُوتٍ مِنْ زُجَاجٍ. إِنَّهَا مِنَ الْجَمَالِ بِحَيْثُ بَقِيتُ لِلَيْلَةٍ كَامِلَةٍ أَتَأَمَّلُهَا.

مَعَ قَوْلِهِ هَذَا، كَانَتْ عَيْنَا يُوكُو شَاخِصَتَيْنِ فِي الْفَرَاغِ، بِنَظْرَةٍ مَا زَالَ يَغْشَاهَا الْحُلْمُ نَفْسُهُ. كَانَتِ الْقِصَّةُ طَوِيلَةً وَمُؤَثِّرَةً. كَانَتِ الْعَوْدَةُ إِلَى الْعَالَمِ الْوَاقِعِيِّ صَعْبَةً.

اِكْتَفَى هُورُوشِي بِالِابْتِسَامِ لِلشَّابِّ وَبِطَأْطَأَةِ الرَّأْسِ مُوَافَقَةً. وَلَكِنَّهُ، طَبْعاً، لَمْ يُصَدِّقْ شَيْئاً مِنْ كَلَامِهِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.38

فِي الْغَدِ، قُرْبَ النَّهْرِ الْمُفَضَّضِ، طَلَبَ سوزِيكِي مِنْ يُوكُو أَنْ يُطْبِقَ عَيْنَيْهِ وَأَنْ يَتَخَيَّلَ الْبَيَاضَ.

— اَلْبَيَاضُ لَيْسَ لَوْناً. إِنَّهُ غِيَابُ اللَّوْنِ. أَطْبِقْ عَيْنَيْكَ وَقُلْ لِي مَاذَا تَرَى. — أَرَى، أَيْ مُعَلِّمُ، تَابُوتاً مِنْ زُجَاجٍ فِي الْجَلِيدِ. وَفِي هَذَا التَّابُوتِ أَرَى وَجْهَ امْرَأَةٍ. إِنَّهَا هُنَا، أَمَامَ نَاظِرَيَّ. إِنَّهَا امْرَأَةٌ شَابَّةٌ عَارِيَةٌ، شَقْرَاءُ، أُورُبِّيَّةٌ. إِنَّهَا مَيِّتَةٌ. إِنَّهَا تَنَامُ تَحْتَ مِتْرٍ مِنَ الْجَلِيدِ. إِنَّهَا فِي قَلْبِ قَضَاءِ هُونْشُو، فِي أَعْلَى جِبَالِ الْيَابَانِ. كَانَتْ بَهْلَوَانَةً. تُسَمَّى ثَلْج. وَأَنَا أَعْرِفُ أَيْنَ تُوجَدُ.

مَعَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، جَمَدَ وَجْهُ سُوزِيكِي. دُونَ أَنْ يَكُفَّ عَنْ أَخْذِ نَظْرَتِهِ الْمَيِّتَةِ نَحْوَ أُفُقٍ لَا يَرَاهُ، أَجَابَ: — مَنْ تَكُونُ أَنْتَ لِتَعْرِفَ كُلَّ هَذَا؟ مَبْعُوثٌ مِنَ الْعَتَمَةِ؟ لَا أَحَدَ يَعْلَمُ أَيْنَ تُوجَدُ. لَقَدِ ابْتَلَعَهَا الْجَبَلُ. قَبْلَ زَمَنٍ طَوِيلٍ. — هَذَا غَلَطٌ. لَقَدْ هَضَمَهَا الْجَبَلُ وَلَفَظَ جَسَدَهَا. بِبُطْءٍ، سَنَةً بَعْدَ أُخْرَى، صَعَدَ جَيْشُ الثَّلْجِ بِجَسَدِهَا مِنْ عُمْقِ شَقِّ الْأَرْضِ حَيْثُ لَقِيَتْ حَتْفَهَا. إِنَّهَا هُنَاكَ، عَلَى عُمْقِ مِتْرٍ مِنَ الْجَلِيدِ. إِنَّهَا هُنَاكَ، فِي تَابُوتِهَا الزُّجَاجِيِّ، سَلِيمَةً، جَمِيلَةً كَمَا عَرَفْتَهَا. يُمْكِنُنِي أَنْ أَحْلِفَ لَكَ أَنَّنِي أَعْرِفُ أَيْنَ تُوجَدُ. لَقَدْ عَثَرْتُ عَلَيْهَا صُدْفَةً، وَأَنَا أَعْبُرُ الْجَبَلَ. لَقَدْ تَمَلَّكَنِي جَمَالُهَا بِحَيْثُ بَقِيتُ لِلَيْلَةٍ بِكَامِلِهَا أَتَأَمَّلُهَا. لَقَدْ عَلَّمْتُ بِصَلِيبٍ مَوْضِعَ قَبْرِهَا الْجَلِيدِيِّ. إِنْ شِئْتَ قُدْتُكَ إِلَيْهَا.

أَدْرَكَ الْمُعَلِّمُ أَنَّ يُوكُو كَانَ يَقُولُ الْحَقِيقَةَ فَلَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ عَنْ ذَرْفِ دَمْعَةٍ.

— كُنْتُ أُدْرِكُ أَنَّهَا، ذَاتَ يَوْمٍ، سَتَبْعَثُ لِي رَسُولًا. وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أُدْرِكُ أَنَّ هَذَا الرَّسُولَ سَيَأْتِي مُتَأَخِّراً جِدًّا فِي حَيَاتِي.

ثُمَّ اسْتَدَارَ نَحْوَ يُوكُو وَرَبَّتَ عَلَى كَتِفِهِ.

— أَنَا الَّذِي كُنْتُ، فِي كُلِّ يَوْمٍ بَعْدَ مَوْتِهَا، أُحَاوِلُ الْقَبْضَ عَلَى جَمَالِ ثَلْجِ وَجْهِهَا، مِنْ خِلَالِ الْفَنِّ التَّشْكِيلِيِّ، الْمُوسِيقَى، الْقَصِيدَةِ. وَهَا هِيَ الْآنَ طَوْعُ النَّظَرِ. أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَقُولُ إِنِّي لَنْ أُلَاقِيَهَا أَبَداً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.39

فِي الْغَدِ، بَعْدَ حِصَّةِ الدَّرْسِ، سَأَلَ يُوكُو سُوزِيكِي: — هَلْ فَكَّرْتَ فِي اقْتِرَاحِي؟ مَتَى تَوَدُّ أَنْ أَقُودَكَ إِلَى قَبْرِ الْفَقِيدَةِ زَوْجَتِكَ؟

تَنَهَّدَ سُوزِيكِي، ثُمَّ أَجَابَ بِصَوْتٍ حَزِينٍ: — أَيْ وَلَدِي. أَظُنُّ هَذَا السَّفَرَ غَيْرَ مُجْدٍ. أَنَا مُتَيَقِّنٌ أَنَّكَ تَقُولُ الْحَقِيقَةَ، وَلَكِنْ أَيَّةُ مَنْفَعَةٍ لِشَيْخٍ أَعْمَى فِي الْبَحْثِ عَنْ قَبْرِ مَيِّتَةٍ؟ زَوْجَتِي تَرْقُدُ بِسَلَامٍ حَيْثُ هِيَ. فَلْتُخْتَرَمْ عُزْلَتُهَا إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ.

ثُمَّ تَرَكَ يُوكُو وَتَوَارَى فِي حَدِيقَةِ زُهُورِهِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.40

مَرَّ شَهرٌ. لَم يَجرُؤ يُوكُو بَعدَهَا عَلَى الحَدِيثِ بِشَأنِ امرَأةِ الجَلِيدِ الشَّابَّةِ فِي حُضُورِ المُعَلِّمِ. كَمَا كَانَ يَبدُو أنَّ سُوزِيكِي يَجهَلُ تَدَاوُلَ يُوكُو وَالخَادِمِ لِلأمرِ.

كَانَ المُعَلِّمُ، فِي كُلِّ يَومٍ، يَكتَفِي بِتَحِيَّتِهِ وَيَبدَأُ دَرسَهُ. ثُمَّ يَتَوَارَى عَنِ الأنظَارِ بَقِيَّةَ اليَومِ وَيَلُوذُ بِالصَّمتِ خِلَالَ العَشَاءِ.

وَذَاتَ صَبَاحٍ، حِينَ كَانَ وَاقِفاً قُربَ النَّهرِ المُفَضَّضِ، قَالَ لَهُ الشَّيخُ الأعمَى: — أيْ يُوكُو، سَتَصِيرُ شَاعِراً كَامِلًا حِينَ تُدرِجُ، فِي كِتَابَتِكَ، مَبَادِئَ الفَنِّ التَّشكِيلِيِّ، وَالخَطِّ، وَالمُوسِيقَى، وَالرَّقصِ. وَخُصُوصاً حِينَ تَصِيرُ مُتَمَرِّسًا بِفَنِّ البَهلَوَانِ.

أخَذَ يُوكُو يَبتَسِمُ. لَم يَنسَ المُعَلِّمُ.

— فِيمَ لِفَنِّ البَهلَوَانِ أنْ يَنفَعَنِي؟

رَبَّتَ سُوزِيكِي عَلَى كَتِفِ الفَتَى، مِثلَمَا فَعَلَ قَبلَ شَهرٍ.

— فِيمَ؟ فِي الحَقِيقَةِ، الشَّاعِرُ، الشَّاعِرُ الحَقِيقِيُّ، هُوَ مَن يَفتَلِكُ زِمَامَ فَنِّ البَهلَوَانِ. الكِتَابَةُ، إنَّهَا تَتَقَدَّمُ فَوقَ حَبلٍ مِن جَمَالٍ كَلِمَةً كَلِمَةً، فَوقَ حَبلِ قَصِيدَةٍ، حَبلِ أثَرٍ، حَبلِ قِصَّةٍ دُوِّنَت عَلَى وَرَقٍ مِن حَرِيرٍ. اَلكِتَابَةُ، إنَّهَا تَتَقَدَّمُ فِي طَرِيقِ الكِتَابِ، خُطوَةً خُطوَةً، صَفحَةً بَعدَ صَفحَةٍ. اَلأصعَبُ، لَيسَ أنْ نَرتَفِعَ فَوقَ الأرضِ وَأنْ نَحفَظَ تَوَازُنَنَا، مُستَنِدِينَ إلَى عَصَا تَوَازُنِ اليَرَاعَةِ، فَوقَ حَبلِ اللُّغَةِ. وَلَا أنْ نَسِيرَ فِي طَرِيقٍ مُستَقِيمٍ، فِي خَطٍّ مُتَّصِلٍ تَقطَعُهُ أحيَاناً دَوخَاتٌ خَفِيَّةٌ كَهُبُوطٍ فَاصِلَةٍ، أوْ كَعَقَبَةِ نُقطَةٍ. لَا، اَلأصعَبُ، بِالنِّسبَةِ إلَى الشَّاعِرِ، هُوَ أنْ يَبقَى بِاستِمرَارٍ فَوقَ هَذَا الحَبلِ الَّذِي نُسَمِّيهِ الكِتَابَةَ، أنْ نَعِيشَ كُلَّ سَاعَةٍ مِن حَيَاتِنَا فِي مُستَوَى الحُلمِ، أنْ لَا نَهبِطَ أبَداً، وَلَو لِلَحظَةٍ، مِن حَبلِ خَيَالِنَا. اَلأصعَبُ، فِي الحَقِيقَةِ، هُوَ أنْ نَصِيرَ بَهلَوَانَ الكَلِمَةِ.

شَكَرَ يُوكُو المُعَلِّمَ أنَّهُ لَقَّنَهُ الفَنَّ بِطَرِيقَةٍ فِي غَايَةِ الأرَبِ، فِي غَايَةِ الجَمَالِ. اِكتَفَى سُوزِيكِي بِالابتِسَامَةِ. ثُمَّ قَالَ: — سَنَذهَبُ غَداً لِلبَحثِ عَن ثَلجٍ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.41

ذَهَبَا فَجراً. كَانَ يُوكُو يَتَقَدَّمُ، أَمَّا سُوزِيكِي فَكَانَ يَتْبَعُهُ مُضفِياً إِلَى خُطَاهُ تَضرِبُ فِي الأَرْضِ.

كُلَّمَا هَمَّ الْفَتَى بِمَدِّ يَدِهِ لِلشَّيْخِ، حِينَ تَفْتُلُ بَعْضُ الْمَخَاطِرِ فِي الطَّرِيق، كَانَ الْمُعَلِّمُ يَرْفُضُ وَيَتَمَنَّعُ.

فِي الْمَسَاءِ، نَامَا فِي بَيْتِ الْمُقِيمِ هُنَاك، عَلَى حَصَائِرَ رُتِّبَت مُبَاشَرَةً فَوقَ الأَرْضِ. عِنْدَ مَدَاخِلِ الْقُرَى، كُلَّمَا صَرَّحَ سُوزِيكِي بِاسْمِهِ، كَانَتِ الْبَوَّابَاتُ تُفْتَحُ كَمَا لَو كَانَ ذَلِكَ أَثَراً مِنْ سِحْرٍ. كَانَ يَبْدُو أَنَّ الْيَابَانَ بِأَسْرِهِ يَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ الذَّائِعَ الصِّيتِ. اِنْدَهَشَ يُوكُو لِلأَمْرِ. سَاعَتَئِذٍ أَدْرَكَ كَمْ كَانَ مَحْظُوظاً أَنْ يُتَابِعَ دُرُوسَ مُعَلِّمٍ مِثْلِهِ.

لَيْسَ فِي وُسْعِ الْجَمِيعِ أَنْ يُلَاقِيَ الآلِهَةَ فِي حَيَاتِهِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.42

كَانَتِ الرِّحلَةُ طَوِيلَةً، ذَاتَ بَيَاضٍ مُتَوَاصِلٍ.

بَيَاضٍ كَشَجَرَاتِ الْكَرَزِ الْمُزْهِرَةِ.

بَيَاضٍ كَالصُّفتِ الَّذِي كَانَ يُرَافِقُ الْمَاشِيَتَينِ.

وَأَخِيراً، ذَاتَ صَبَاحٍ، بَزَغَتْ أُولَى قُنَنِ الْجِبَالِ. بَدَأَتِ الطَّرِيقُ تَتَسَامَى بِبُطءٍ نَحوَ السَّمَاءِ وَصَفَائِهَا.

كَانَتْ تِلْكَ أَصعَبَ الأَوقَاتِ.

بَدَأْتُ تَبْدُو عَلَى سُوزِيكِي آثَارُ التَّعَبِ. وَلَكِنَّ يُوكُو كَانَ يَتَصَنَّعُ أَنَّهُ يُذكِرُهَا. خُصُوصاً أَنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا بَعِيدَينِ كَثِيراً عَنْ قَبْرِ الْجَلِيدِ.

كَانَتِ الرِّحلَةُ تُقَارِبُ مُنتَهَاهَا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.43

حِينَ رَأَى الصَّلِيبَ، ارْتَجَفَ يُوكُو تَأَثُّراً.

— مُعَلِّمِي، صَاحَ، لَقَدْ عَثَرْتُ عَلَيْهَا!

هُرِعَ الْفَتَى إِلَى أَسْفَلِ الصَّخْرَةِ، ثَمَّةَ حَيْثُ سَبَقَ لَهُ أَنِ اكْتَشَفَ قَبْرَ ثَلْجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَاصِفَةٍ، وَصَاحَ تَفَاجُؤًا.

— مَاذَا هُنَاكَ؟ سَأَلَ سُوزِيكِي عَلَى قَلَقٍ. هَلِ اخْتَفَتْ ثَلْجَ إِلَى الْأَبَدِ فِي قَلْبِ الْجَبَلِ؟ أَكَانَ ثَمَّةَ انْهِيَارٌ ثَلْجِيٌّ؟ — لَا، قَالَ يُوكُو. عَلَى الْعَكْسِ تَمَاماً. كَأَنَّ جَيْشَ الثَّلْجِ سَمِعَ نِدَاءَنَا وَاسْتَبَقَ قُدُومَنَا. ثَلْجَ هُنَا. وَلَكِنَّ جَسَدَهَا أَقْرَبُ إِلَيْنَا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ آخِرَ مَرَّةٍ. لَمْ تَعُدْ إِلَّا عَلَى عُمْقِ سِنْتِمِتْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ تَحْتَ الْجَلِيدِ. بِإِمْكَانِنَا مُلَامَسَتُهَا تَقْرِيباً.

لَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ. تِلْكَ الْمَخْلُوقَةُ الْجَمِيلَةُ، فِي غَايَةِ جَمَالِهَا، فِي غَايَةِ شُقْرَتِهَا، هَشَّةً كَحُلْمٍ. كَانَتْ مَيِّتَةً. وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَبْدُو حَيَّةً. كَانَتْ نَائِمَةً تَحْتَ الْجَلِيدِ. وَكَانَتْ سَتَخْرُجُ، عَمَّا قَرِيبٍ، مِنْ قَبْرِهَا.

لَمْ تَكُنْ حَقًّا عَارِيَةً، كَمَا ظَنَّ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، وَلَكِنَّ لِبَاسَهَا كَبَهْلَوَانَةٍ بَقِيَ طَوِيلًا تَحْتَ الْجَلِيدِ حَيْثُ إِنَّ لُحْمَةَ النَّسِيجِ صَارَتْ شَفِيفَةً تَقْرِيباً. أَمَّا جَسَدُهَا الْمُعْتَدِلُ الْقَوَامِ، وَإِهَابُهَا الشَّفِيفُ فَكَانَا يَبْدُوَانِ أَكْثَرَ هَشَاشَةً.

اِرْتَمَى يُوكُو عَلَى الْأَرْضِ وَنَبَشَ فِي الْجَلِيدِ بِأَظَافِرِهِ. وَأَخِيراً بَزَغَتْ ثَلْجَ. ثُمَّ أَمْسَكَ بِيَدِ سُوزِيكِي وَوَضَعَهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْأَةِ الشَّابَّةِ.

— هَلْ تُحِسُّ بِوَجْهِهَا؟ هَلْ تُحِسُّ بِإِهَابِهَا؟

لَامَسَتْ يَدُ الْعَجُوزِ وَجْنَةَ حَبِيبَتِهِ الْمَفْقُودَةِ.

كَانَ سُوزِيكِي أَعْمَى. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَتَاتاً فِي حَاجَةٍ إِلَى عَيْنَيْهِ لِاسْتِكْشَافِ تَقَاسِيمِ وَجْهِ.

بَقِيَ وَجْهُ الْمَرْأَةِ الشَّابَّةِ مَحْفُوظاً بِشَكْلٍ جَيِّدٍ بِحَيْثُ اكْتَفَى بِلَمْسَةٍ خَفِيفَةٍ بِرَاحَةِ يَدِهِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لِلْجُفُونِ الزَّرقَاءِ.

— إِنَّهَا هِيَ حَقًّا. إِنَّهَا ثَلْج. لَمْ تَكْذِبْ عَلَيَّ.

حِينَئِذٍ خَرَّ عِنْدَ رُكْبَتَيْهِ وَبَكَى دَمْعاً سَاخِناً لِشَبَابِ حَيَاتِهِ الْمُسْتَعَادِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.44

لَمْ يَنْزِلْ سُوزِيكِي أَبَداً مِنَ الْجَبَلِ. تَمَدَّدَ فَوْقَ الْجَلِيدِ، قُرْبَ حَبِيبَتِهِ، وَأَطْبَقَ عَيْنَيْهِ.

حَاوَلَ يُوكُو أَنْ يُثْنِيَهُ عَنْ حَمَاقَةٍ كَتِلْكَ، وَلَكِنَّ الْمُعَلِّمَ أَجَابَهُ بِصَوْتٍ هَادِئٍ: — دَعْنِي وَشَأْنِي. لَقَدْ عَثَرْتُ عَلَى مَكَانِي، إِلَى الْأَبَدِ.

ثُمَّ نَامَ بِجِوَارِ الْجَسَدِ الْمَحْفُوظِ لِلْمَرْأَةِ الشَّابَّةِ.

حِينَ مَاتَ، تَرَكَ نَفْسَهُ يَنْقَادُ لِبَيَاضِ الْعَالَمِ، يَجْتَاحُهُ.

كَانَ سَعِيداً.

فِي مُسْتَوَى الْقَلْبِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.45

عَادَ يُوكُو بِمُفْرَدِهِ مِنَ الْجَبَلِ. اِتَّجَهَ شَمَالًا. صَوْبَ الثَّلْجِ.

لَمْ يَلْتَفِتِ الْبَتَّةَ خَلْفَهُ.

تَقَدَّمَ فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ، مُنْتَصِبَ الْقَامَةِ، كَمَا لَوْ كَانَ فَوْقَ حَبْلٍ مَمْدُودٍ بَيْنَ جَنُوبِ الْيَابَانِ وَشَمَالِهِ.

كَبَهْلَوَانٍ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.46

حِينَ بَلَغَ بَنِيتَهُ أُخِيراً، سَأَلَهُ أَبُوهُ عَنْ رِحلَتِهِ وَعَنْ إِفَادَتِهِ مِنْ دُرُوسِ الْمُعَلِّمِ. وَلَكِنَّ يُوكُو لَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ. اِنْزَوَى فِي مُختَرَفِهِ وَلَمْ يُغَادِرْهُ لِأَيَّامٍ عَدِيدَةٍ.

ذَاتَ صَبَاحٍ، بَعْدَ أَنْ فَقَدَ صَبْرَهُ، أَلَحَّ الرَّاهِبُ عَلَى ابْنِهِ لِمَعْرِفَةِ سَبَبِ هَذِهِ الْعُزْلَةِ الطَّوْعِيَّةِ. أَجَابَ يُوكُو: — لَقَدْ رَحَلَ سُوزِيكِي، يَا أَبَتِ. أَتْرُكْنِي الْآنَ أَلْبَسُ ثَوْبَ حِدَادِي عَلَيْهِ.

أَحْكَمَ إِغْلَاقَ الْبَابِ عَلَى نَفْسِهِ وَبَكَى.

وَلَكِنَّ يُوكُو، فِي الْحَقِيقَةِ، رَغْمَ صَدَاقَتِهِ لِسُوزِيكِي وَإِعْجَابِهِ بِهِ، لَمْ يَبْكِ مَوْتَ الشَّيْخِ.

وَإِنَّمَا بَكَى حَبِيبَتَهُ الْمَفْقُودَةَ فِي الثَّلْجِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.47

حلَمَ لِلَيالٍ عَدِيدَةٍ بِامرَأَةِ الْجَلِيدِ.

بِثَلْجٍ.

ذَاتَ لَيلَةٍ، وَصَلَتْهُ فَتَاةُ النَّبعِ وَرَاوَدَتْهُ عَنْ نَفسِهِ، وَلَكِنَّ الْفَتَى صَدَّهَا بِتَنهِيدَةِ ضَجَرٍ.
Telegram:@mbooks90
هَرَبَتْ وَهِيَ تَهُمُّ بِالْبُكَاءِ، وَلَم يَرَهَا ثَانِيَةً قَطُّ.

هَوَتْ حَبَّاتُ الْفُصُولِ فِي السَّاعَةِ الرَّمْلِيَّةِ لِلزَّمَنِ.

فِي أُولَى أَيَّامِ الشِّتَاءِ، سَقَطَ الثَّلْجُ. وَسَقَطَ مَعَهُ أَوَّلُ حِبرٍ أَوَّلِ قَصِيدَةٍ عَلَى رَقِّ الْحَرِيرِ.

وَهُوَ يَنثُرُ أُولَى الْكَلِمَاتِ عَلَى الْوَرَقِ، انْشَرَحَ قَلْبُهُ. وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَوَهُّماً. وَخَدَهُ الشَّعْرُ كَانَ يُخَفِّفُ مِنْ ثِقْلِ كُرْبَتِهِ. حِينَ وَضَعَ يَرَاعَتَهُ جَانِباً، صَارَ قَلْبُهُ بَارِداً كَالْجَلِيدِ.

كَانَ شِتَاءً طَوِيلًا، ذَا بَيَاضٍ لَألَاءٍ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.48

وَلَكِن، فِي أُولَى أَيَّامِ الرَّبِيعِ، تَغَيَّرَت كِتَابَةُ يُوكُو. شَيئاً فَشَيئاً، صَارَ لِقَصَائِدِهِ لَونٌ آخَرُ.

بَقِيَ مَشدُوهاً أَنَّهُ اكتَشَفَ فِيهَا أَلوَاناً أُخرَى غَيرَ لَونِ الثَّلجِ.

اِنتَهَت دُرُوسُ سُوزِيكِي بِأَن أَتَت أَكلَهَا: الذَّهَبَ، الفِضَّةَ، الحُلُمَ.

صَارَ يُوكُو، مُنذُ الآنَ، شَاعِراً كَامِلًا. لَم تَعُد قَصَائِدُ الهَايكُو الخَارِجَةُ مِن بَينِ يَدَيهِ بَيضَاءَ بِشَكلٍ يَبعَثُ عَلَى اليَأسِ. كَانَت كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنهَا تَحتَوِي أَلوَانَ الطَّيفِ، أَلوَانَ قَوسِ قُزَحَ. صَارَت كِتَابَتُهُ صَافِيَةً، نَفِيسَةً. وَمُلَوَّنَةً.

وَلَكِنَّ أُضقَاعَ قَلبِهِ بَقِيَت مَطبُوعَةً بِالبَيَاضِ، وَبِشَكلٍ يَبعَثُ عَلَى الغَرَابَةِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.49

ذَاتَ صَبَاحٍ مِنْ أَضْبَاحِ نِيسَانَ، حَوْلًا كَامِلًا بَعْدَ مَوْتِ سُوزِيكِي، طَلَبَتْ امْرَأَةٌ شَابَّةٌ ضِيَافَةَ أَبِي يُوكُو. عَرَفَهَا الرَّاهِبُ. كَانَتْ مَخْمِيَّةَ شَاعِرٍ بَلَاطِ الْإِمْبَرَاطُورِ الْفَتِيَّةَ. اَلْفَتَاةُ الَّتِي كَنَّ لَهَا ابْنُهُ ضَغِينَةً رَهِيبَةً وَحُبًّا عَارِماً. كَانَتْ، هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَحْدَهَا.

اِسْتَقْبَلَهَا الرَّاهِبُ بِتَزْحِيبٍ وَنَاوَلَهَا قَدَحَ شَايٍ سَاخِنٍ ارْتَشَفَتْهُ بِتَمَهُّلٍ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى النَّهْرِ الْمُفَضَّضِ. ثُمَّ قَادَهَا نَحْوَ مُخْتَرَفِ ابْنِهِ.

حِينَ نَظَرَ إِلَيْهَا يُوكُو، وَجَدَهَا فِي غَايَةِ الْجَمَالِ بِحَيْثُ سَرَتْ فِيهِ ارْتِجَافَةٌ. شَعَرَتْ قَصِيدَةُ الْهَايْكُو الَّتِي كَانَ يَخُطُّهَا عَلَى رَقِّ الْحَرِيرِ بِدَوْخَةٍ. اِنْسَابَتْ يَرَاعَةُ يُوكُو عَلَى الْوَرَقِ وَشَكَّلَتْ عَلَامَةً غَرِيبَةً. خَطًّا مُسْتَقِيماً تَقْطَعُهُ فَاصِلَةٌ. كَرَسْمَةِ بَهْلَوَانَةٍ فَوْقَ حَبْلٍ مِنْ جُمَانٍ.

اِلْتَفَتَ يُوكُو نَحْوَ الْمَرْأَةِ الشَّابَّةِ وَتَبَسَّمَ لَهَا. دَنَتْ مِنْهُ، دُونَ أَنْ تَنْبِسَ بِكَلِمَةٍ، وَتَحَسَّسَتْ كَتِفَهُ بِيَدِهَا. ثُمَّ مَالَتْ نَحْوَ عَمَلِ الْمُعَلِّمِ الْفَتِيِّ وَقَالَتْ: — إِنَّهُ، دُونَمَا شَكٍّ، أَجْمَلُ بُوزْثْرِيهِ رُسِمَ لِأُمِّي.

كَانَتْ تُسَمَّى نُدْفَةَ الرَّبِيعِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.50

تَأمَّلَ الفَتَى الرَّسمَةَ أَمَامَهُ، نَظَرَ إِلَيهَا، إِلَى الفَتَاةِ، فَأَدرَكَ أَنَّ الأَمرَ يَتَعَلَّقُ بِالحُلمِ المُكتَمِلِ نَفسِهِ فِي مَا تَبَقَّى مِنَ الوَاقِعِ الَّذِي بَقِيَ عَالِقاً مِن حَولِهِ.

– لَقَدِ انتَظَرتُكِ طَوِيلًا، قَالَ.

اِنحَنَت بِرَأسِهَا عَلَى كَتِفِهِ وَأَطبَقَت عَينَيهَا.

– كُنتُ أُدرِكُ أَنَّ بِإِمكَانِكَ أَن تَنتَظِرَ أَيضاً وَأَيضاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.51

فِي تِلْك اللَّيْلَةِ مَارَسَا الْحُبّ لِأَوْلِ مَرَّةٍ. هُوَ: الشَّاعِرُ الشَّابُّ، وَهِيَ: ابْنَةُ الْمُعَلِّمِ وَامْرَأَةِ الْجَلِيدِ.

حِينَ ضَمَّهَا، تَأَوَّهَتْ بِشِدَّةٍ، بِحَيْثُ ازْتَعَشَ تَأْثُراً.

قَبَّلَ عَيْنَيْهَا، نَهْدَيْهَا، بَطْنَهَا.

فِي الصَّبَاحِ، انْقَادَا لِسُلْطَانِ النَّوْمِ.

خَارِجاً، كَانَ الثَّلْج يَسَّاقَطُ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.52

ثَمَّةَ صِنفَانِ مِنَ النَّاسِ.

ثَمَّةَ مَنْ يَخيَوْنَ، يَلْعَبُونَ وَيَمُوتُونَ.

وَثَمَّةَ مَنْ لَا يَفْعَلُونَ شَيئاً أَبَداً سِوَى أَنْ يَحفَظُوا تَوَازُنَهُم عَلَى حَزفِ الْحَيَاةِ.

ثَمَّةَ الْمُمَثِّلُونَ.

وَثَمَّةَ الْبَهْلَوَانَاتُ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.53

لَمْ يَذْهَبْ يُوكُو قَطُّ إِلَى بَلَاطِ الْإِمْبرَاطُورِ. لَمْ تَصِلْ نُدفَةُ الثَّلْجِ الْبَتَّةَ بَهْلَوَانَةً. لَا يَنْبَغِي لِلْقِصَّةِ، فِي أَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، أَنْ تُعِيدَ نَفْسَهَا.

تَزَوَّجَا فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ الْأُولَى، عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ الْمُفَضَّضِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner